

HANI EL SALMY

# جميلات

(الحرب والنزوح)

نصوص

هاني السالمي



دار الجنوب  
SUD EDITIONS

## جميلات الحرب والنزوح

جمع وإعداد  
هاني السالمي

### جميلات الحرب والنزوح

وُلدت هذه المجموعة القصصية من قلب تجربة إنسانية عميقة عشتها أثناء تنقلي داخل مخيمات النزوح. هناك، بين الخيام التي ارتجفت تحت وطأة الحرب، التقيت بأمهات وجدات نسجن من الوجد والأمل حكايات حياة

كنت أجلس معهنّ لأستمع إلى أصوات محمّلة بذكريات البيوت التي تهدمت، وأيام ما قبل الحرب، وأخرى شهدن فيها على النزوح والفقدان. تلك الحكايات، التي انبثقت من الألم ومن قوة البقاء، جمعتها منهن بعناية وأعدت صياغتها لتصبح نصوصاً تحمل أرواحهن، وتوثق شهادتهن للأجيال القادمة

جميلات الحرب والنزوح ” ليست فقط قصصاً عن الحرب، بل عن الجمال المقاوم للخراب، عن النساء اللواتي واجهنّ النزوح بالسرد، وعن الأطفال الذين كتبوا ليكون لهم صوت وسط الصمت القاسي. إنها محاولة للإبقاء على هذه الأصوات حياة، نابضة، عصية على النسيان

هاني السالمي

## لؤلؤة الصمت 1

كانت لؤلؤة العبيدي، ذات الثمانية والثلاثين عامًا، تعرف كيف تملأ البيت بصوتها. لم تكن مغنية، لكنها كانت تقرأ القصص لطفلها قبل النوم بصوت ناعم كالماء. كانت تهمس لزوجها بكلمات العزاء حين يعود من يوم طويل، وتدعو الله جهازًا عند كل غروب صوتها كان ضوء البيت، وموسيقى الناجين

في ليلة شتوية من ليالي الحرب الأخيرة على غزة، وقعت القذيفة خلف الجدار مباشرة. انفجرت قنبلة غاز غريب، قيل إنه محذور، وتسرّب السم إلى رئتيها كما تتسرّب الغصّة إلى القلب. سعلت لؤلؤة حتى ظنّ زوجها أنها تموت، ثم صمتت

، ومنذ تلك الليلة، لم تتكلم لؤلؤة. اختفى صوتها تمامًا، كما تختفي البلباب من سماء القصف. حملها زوجها من مستشفى إلى خيمة "من طبيب إلى نقطة طبية، وكل الأجوبة كانت: "تلف الحبال الصوتية نتيجة الغاز، قد لا يعود الصوت أبدًا"

لكن ما لم يعرفه الأطباء هو أن لؤلؤة لا تحزن على صوتها بقدر ما تحزن على قصصها التي لم تُرو. كانت قد بدأت تكتب سيرة أمّها الراحلة، وكانت تجهّز لحكاية قصيرة عن الجدة التي أتقنت جيرانها يوم النكبة. والآن، حين تمسك القلم، تبكي، لأن الكلمات كانت تخرج أولًا من فمها قبل أن تسكن الورق

، طفلها الصغير، يونس، ذو السبع سنوات، أصبح يُقبل على فمها كل مساء، ويهمس: "متى تحكي لي حكاية يا ماما؟" فتبتسم لؤلؤة وتفتح له دفاترها القديمة، وتبدأ بإشارات اليد والعين تحكي له القصص. صار يونس يفهم لغة عينيها، ويكمل عنها الجمل، حتى أصبح صوته امتدادًا لصوتها الضائع

لؤلؤة لم تعد تهمس، لكنها تكتب على جدران خيمتها الصغيرة

"كنت صوتًا، والآن صمتٌ يصرخ"

"وفي كل يوم، تقف قرب صف الطحين، تساعد جارة، تربّت على ظهر أم فقدت رضيعها، وتشير للسماء كأنها تقول: "مازلنا هنا

في غزة، الصمت لا يعني الغياب، بل الصبر

ولؤلؤة، لؤلؤة غزة، لم تفقد صوتها فقط، بل وجّدت في الصمت شكلاً آخر للحياة

سكينة مرتضى – أرملة مرتين، أم للعزاء والصبر

في عمر السابعة والعشرين، كانت سكينة مرتضى تعرف جيداً كيف يبدو التراب حين يدفن فيه الحبيب، وكيف تُحنى الظهر في جنازات لا تتوقف. ليست فقط أرملة، بل أرملة مرتين

تزوجت في السابعة عشرة من عمرها، وكانت تحب زوجها كمن يرى فيه الوطن. عاشا سنتين فقط، ثم سقط شهيداً في اجتياح على أطراف غزة. يومها، قالت سكينة للجميع: "الله ما بيضيع دم الأوفياء." وعادت لتخيط ثياب الأيتام، وتوزع الخبز في الأحياء المهذمة، وتبتسم

مرت ثلاث سنوات، تزوجت بعدها من صديق الشهيد الأول، رجل كان يعرف الحكاية ويحترم الجرح. بنى لها بيتاً صغيراً، وعلم ابنها الأبجديات. كانت سكينة تقول: "القلوب تتشابه إذا عرفت الحب والشهادة." وعاشت عامًا من هدوءٍ نادر، قبل أن تدوي الغارة

في غارة واحدة، فقدت سكينة البيت والزوج الثاني. حملوا جثته من بين الأنقاض، ودفنوه بجانب صديقه الأول. سكينة، التي لم "تصرخ، جلست على الحصير قرب قبريهما وقالت: "أنا زوجة شهيدين، لكني لم أطلق من الحياة بعد

النساء في الحي صرن يسميها "الأرملة المباركة"، لكنها ترفض اللقب. تقول دائماً: "أنا لست قصة حزن، أنا صمود." تحمل الدقيق على ظهرها، وتخبز لعشر عائلات. تنظف خيمة الجرحى، وتعلم البنات كيف يطرزن على القماش الشهادة والنجاة

في كل صباح، ترتب صورتين في خيمتها، وتقرأ عليهما آية الكرسي، ثم تبدأ يومها بلا تردد. لم تعد تحلم، لكنها تحيك الأحلام لبنات غيرها

حين سُئلت ذات مرة: "كيف تعيشين كل هذا؟"، قالت سكينة دون أن تهتز عيناها

"أنا لا أعيش كل هذا، أنا أنجبه، مثلما تنجب الأرض الزيتون بعد النار"

سكينة مرتضى، في السابعة والعشرين، لا تضع الحجاب فقط على رأسها، بل على جرحها أيضًا، وتخرج كل يوم لتقول للعالم:  
\* "أنا لم أخلق للبكاء، بل لدفن شهدائي والوقوف" \*

#### أحلام الربيعي – حفيدة ابن سيرين

في مخيم النزوح، على أطراف الجنوب المحاصر، تجلس امرأة بملامح هادئة وابتسامة تعرف متى تظهر. اسمها أحلام الربيعي، عمرها ثلاثة وستون عامًا، لكنها تُلقب بـ"حفيدة ابن سيرين". ليس لأنها درست علم الأحلام في جامعة، بل لأنها قرأت الأحزان في وجوه الناس، وفككت شيفرات النوم عند من لا ينامون.

حين نزحت إلى المخيم بعد أن سُويت دارها بالأرض، حملت في يدها حقيبة، وفي قلبها دفترًا من الذكريات. كانت تعيش وحدها بعد أن ودعت ابنها الوحيد في حرب سابقة، وتعلمت منذ ذلك اليوم كيف تصغي لما تقوله الأرواح من خلال الأحلام.

بدأت الحكاية حين جلست ذات مساء على باب خيمتها، تسند ظهرها إلى صفيحة زيت فارغة، وسمعت طفلة تقول لأُمها:  
"رأيت أني أطير فوق البحر." ابتسمت أحلام، واقتربت، وهمست للأُم: "بنتك بتعلم بالنجاة... هاد حلم خير، الله رح يجرسها."

منذ تلك الليلة، أصبحت أحلام تفتح باب خيمتها كل صباح، وتستقبل النازحين. واحدًا واحدًا، يدخلون، ويحكون لها أحلامهم المتكسرة. من يرى نفسه يركض بلا قدمين، ومن يرى قنابل تتحوّل إلى شموع، ومن يرى أمهات عادوا من الغياب.

أحلام لا تفسر فقط، بل تطمئن، وتمسح الغبار عن القلوب. تقول: "الرؤية من الله، والحلم من النفس، والكوابيس من الحرب." ثم تسقيهم الشاي، وتقول لهم: "احكوا... الحلم لا يُكتم، لأن فيه ما لم نقل ونحن مستيقظون."

صار الأطفال يحيونها بـ"تيتا أحلام"، وصارت النساء يقصدنها قبل النوم ليس فقط لتفسير الرؤى، بل لتطمئنهم أن غدًا قد يكون أجمل. حتى الرجال، أولئك المتعبين من فقدان البيوت والعمل والكرامة، يأتونها خفية، ليسمعوا أن أحدهم رأى قمرًا كبيرًا، وأن القمر يعني بشارة.

في مخيم النزوح، وسط الغبار وصفوف الطحين، هناك خيمة يُكتب عند بابها بخط صغير:

\*"تفسير الأحلام مجانًا، والدعاء من القلب."\*

أحلام الربيعي، حفيدة ابن سيرين، لم تأتِ بتفسيرٍ من كتاب، بل من قلبٍ يعرف كيف يحوّل الكوابيس إلى قصص رجاء. في زمن الحرب، لم تحمل بندقية، بل حملت كلمات خفيفة كالنجاة.

ولذلك، أحيوها جميعًا.

أين ذكرياتي؟

(عن السيدة ذكري عبد الفتاح، 33 عامًا)

جلست ذكري عبد الفتاح قرب مدخل الخيمة، تلفت رأسها بوشاح والدتها الذي لم تحمله معها إلا في آخر لحظة. كان الليل كثيفًا، والريح تصفر بين الأوتاد، لكنها لم تكن تبالي بالبرد. كانت تهمس في الظلام:

"أين ذكرياتي؟"

أين ضحكاتي؟

أين بيتي؟

هذه الحرب ابتلعت كل شيء."

كانت ذكري فتاةً تعرف كيف تملأ الزوايا بالحياة. تُعلم الأطفال في مدرسة الحي، وتزرع الريحان على نافذة المطبخ، وتحفظ وجوه الحيران واحدًا واحدًا. كانت تكتب في دفتر صغير عناوين الأيام: "اليوم الأول في الشقة"، "ضحكة ابني الأول"، "رائحة الخبز في كانون"، لكنها لم تكتب عن الحرب، لأنها كانت تعتقد أنها لن تصل.

وفي ظهيرة واحدة، انهار كل شيء. غارة من حيث لا تدري، وركض كثير، ووجوه مذعورة، وصراخ لم تفهمه إلا بعد أن أصبحت في منتصف الطريق إلى المجهول. وصلت إلى المخيم مع طفلين، بلا حقيبة، بلا صور، بلا حتى مشطها الخشبي.

في الخيمة، صارت ذكرى تحدث نفسها بصوت مسموع. تقول: "كان عندي مرآة في البيت، كانت تحبني."  
ثم تضحك ضحكة قصيرة، وتضيف: "حتى المرأة تكسرت... مثل كل شيء فينا."

كل من في المخيم يعرف ذكرى. ليست لأنها تصرخ، بل لأنها تهمس بشيء داخلها يشبهنا جميعًا. تصحو في الفجر، تكتب على الورق الباهت عبارات مثل:

"هل يعود البيت؟"

هل تعود الذاكرة؟

هل أستعيد ضحكتي؟"

ثم تطوي الورقة وتدفنها تحت الوسادة، كأنها تريد أن تخفي فيها حلمًا صغيرًا لم يُقصف بعد.

ذات يوم، سألها أحد الأطفال: "إنتِ ليه اسمك ذكرى؟"

أجابت: "لأني أبحث عن الذكرى، لأن كل شيء هرب وبقيت أطارده."

ذكرى عبد الفتاح، 33 عامًا، لم تفقد البيت فقط، بل فقدت ترتيب الأيام، وفقدت تسلسل الفصول، وصارت تقيس عمرها بعدد المرات التي سمعت فيها كلمة "قصف".

لكنها، رغم ذلك، ما زالت كل مساء تقول لأطفالها:

"غداً سنعود... وإن لم نعد، سأرسم لكم البيت على جدار الخيمة، ونعيش فيه بالخيال."

في زمن تُقصف فيه الذاكرة، تبقى ذكرى شاهدة على أن الإنسان، مهما سقط، يحتفظ بركن صغير داخله لا يُقصف.

سجود متولي – مغنية الخيمة

وسط ركام الذاكرة وخيام النزوح، ينبعث صوت يشبه الياسمين في المساء. هناك، عند الزاوية الغربية للمخيم، تجلس \*\*سجود متولي\*\*، 47 عامًا، وتغني.

سجود ليست فنانة على خشبة، ولا تحمل ميكروفونًا، لكنها تحمل شيئاً أندر من كل ذلك: \*\*ذاكرة صوتية كاملة لعشرات الأغاني التراثية\*\*، وتملأ بها الخيمة كما تملأ الجدات الحكايات القديمة.

تقول بابتسامة خجولة:

"يسمونني مغنية الخيمة... يمكن لأن صوتي يبضحك البنات، وبيبكي الأمهات."

في كل عصر، حين تخفّ حرارة الشمس قليلاً، تبدأ النساء والفتيات بالتجمّع عند باب خيمتها. يجلسن على الحصير، بعضهن يحمل أطفالهن، وبعضهن يحملن الحنين. وتبدأ سجود تغني:

\*"يا رايحين ع الغور... خذوني معكم"

ثم تنتقل إلى:

\*"علي الكوفية علي..."

وتمضي، كأنها تسحب الزمن من أذنه وتعيده إلى أيام لم تكن فيها الحروب بهذه الكثافة.

تغني بصوت دافئ، عالٍ حيناً، حنون حيناً، ويكاد صدى صوتها يزيح الخوف عن وجوه النساء. الأغاني لا تداوي الجراح، لكنها تمسح على القلب بلطف، وتمنح للمخيم شيئاً من الطمأنينة التي لا تصلها المساعدات.

تقول إحدى الفتيات:

"لما سجود تغني، بحس إنه في حياة جورا الموت."

أما سجود، فتترد ببساطة:

"الغناء مثل الدعاء... لما يطلع من القلب، بيرجع للقلوب."

من خيمتها خرجت عشرات الحكايات. فتاة اكتشفت موهبتها في العزف على العود، امرأة بدأت تكتب أشعاراً عن الغربية، طفلة توقفت عن البكاء لأول مرة حين سمعت سجود تغني "نامي نامي يا زهرة".

لا تملك شيئاً، لا بيتاً ولا أماناً، لكنها تملك \*\*صوتاً حافظ على التراث، وعلى الناس، من الانهيار التام\*\*.

في المخيم، لا أحد يناديها باسمها الكامل. الجميع يقول: \*\*\*"هيا نروح عند خيمة سجود... اليوم رح تغني عن الجدة والسنايل."\*\*\*

وهكذا، تتحوّل سجود كل مساء إلى طوق نجاة غير مرئي.

صوتها لا يوقف الحرب، لكنه يوقف انهيار الأرواح.

وسجود تعرف ذلك جيداً...

ولهذا، تغني.

رغدة مرتجى – خبز النجاة

في صباحات مخيم النزوح، حيث لا صوت يعلو فوق صوت الطحين المتطاير والأقدام المتعبة، تمضي السيدة \*\*رغدة مرتجى\*\*، 40 عاماً، تحمل الخبز كمن يحمل الحياة.

ليست خبازة محترفة، ولم تملك يوماً مخبزاً، لكنها منذ أن نزحت مع أطفالها الأربعة من بيتها المدفون تحت الردم، قررت ألا تنتظر المساعدات. جمعت الحطب من هنا وهناك، واستعارت صاجاً صدناً من جارة، وبدأت تخبز.

تقول:

"الخبز ما بيكفي، بس الكرامة كانت لازم تظل."

في البداية كانت تصنع لأطفالها فقط، ثم جاءت الجارة، ثم الجارة الأخرى، حتى صارت رغدة تخبز لعشرين عائلة، وتبيع الرغيف بليرة رمزية، وتقول:

"ما ببيعه، أنا بشاركهم، بس لازم نشترى طحين تاني."

عند خيمتها، يصطف الأطفال والنساء في طابور طويل، يحملون الأمل في كيس صغير، وينتظرون. لا أحد يتذمر، لأنهم يعرفون أن رغبة تضع روحها في العجين. تغني أحياناً، وتمسح العرق بطرف منديلها، وتوزع الابتسامات كما توزع الأرزفة.

"رغيفها غير"، تقول امرأة عجوز، "فيه ريحة أم، وطعم نجاة."

تجربتها ليست عن الخبز فقط، بل عن النهوض. لم تبتك حين فقدت منزلها، ولم تصرخ حين اكتشفت أن كل ما تملكه بات تحت خيمة مهترئة. لكنها بكت حين نفذ الطحين، وجلست على الأرض تقول:  
"مش خيفة من الجوع، خيفة من عيون أولادي لما يشتهوا لقمة وما ألقوها."

لكن رغبة لا تستسلم. في اليوم التالي، باعت غطاءها الشتوي واشترت كيس دقيق صغير، وأوقدت النار من جديد. لأن الجوع لا ينتظر، ولأن الكرامة لا تُخبز إلا على نار الصبر.

هي لا تحب الشهرة، ولا تعرف كيف تُجري مقابلات، لكن إن سألت أحداً في المخيم عن "أم الخبز"، سيشير إليك نحو خيمتها فوراً.

رغبة مرتجى، في الأربعين من عمرها، لم تؤسس شركة، لكنها أسست فرناً من حطب الكرامة.  
ولأنها تفعل كل شيء بقلبها، صار \*\*الخبز الذي تبيعه رغيفاً من الرجاء\*\*.

وفي المخيم، هذا أكثر ما نحتاجه.

سحر طارق أحمد – ليلة النزوح

في الثلاثين من عمرها، تروي سحر طارق أحمد قصتها كما لو كانت تحكي كابوساً لا ينتهي.

"ليلة النزوح؟ لا تشبه أي ليلة... إنها الليلة التي خلعنا فيها البيت من فوق أرواحنا وركضنا حفاة نحو المجهول."

كانت سحر تُعدّ العشاء لطفليها حين سقطت القذيفة على البيت المجاور. اهتزت الجدران، وسقط الزجاج، وبدأت الوجوه تصرخ. لم تفكر كثيراً، جمعت ابنيها في حضنها، وخرجت.

لا حقيبة. لا بطانية. لا أوراق.

تركت كل شيء خلفها: أدوات المطبخ، صندوق الذكريات، عطر أمها، وألبوم الصور الذي خبأته لليوم الذي يكبر فيه الصغار.

تقول:

"تركت بيتي مضاءً... حتى ما يخاف إذا عاد وحده."

ركضت في العتمة، بين جموع النازحين، وكلما أرادت أن تلتفت إلى الوراء، شدّت نفسها إلى الأمام.

"لو التفتُ لحظة، كنت سأصرخ، ثم أتعثر، ثم أموت من الندم."

في الطريق إلى المخيم، تعثرت بدموعها، بذكرياتها، بالأشياء الصغيرة التي لم تأخذها.

"كان عندي شال أحمر من أمي... نسيته على طرف السرير."

عند وصولها إلى الخيمة، جلست في الزاوية، وبدأت تعدّ ما فقدت:

فنجان القهوة الصباحي، السجادة التي صلّت عليها في رمضان، مرآة صغيرة على الجدار، ودفتر كتبت فيه أول مرة "أنا حامل".

لكنها لم تبتك أمام أبنائها. بل قالت:

"نحن في رحلة مؤقتة... والبيت الحقيقي لا يُقصف، لأنه في القلب."

سحر، التي لم تكن تعرف الحياة خارج بيتها، أصبحت تعرف الآن كل مسارات توزيع المياه، وكل الأرقام السرية للطوابير. لكنها في الليل، تكتب على قصاصات ورق صغيرة:

"أنا ما زلت أملك أشياء كثيرة... صوت أطفالتي، ويدي، وذاكرة بيتي."

في المخيم، كل من يراها يظنها قوية، لأنها لا تشنكي. لكن القويات هنّ من فقدن كل شيء، وما زلن ينهضن في الفجر ليغسلن وجوه الأطفال ويقلن:

"سيعود البيت، حتى لو بُني من جديد داخل الخيمة."

سحر طارق أحمد، في الثلاثين من عمرها، لم تفقد شيئاً فقط، بل فقدت جزءاً من ذاتها. لكنها تعلّمت في تلك الليلة أن النزوح لا يُعرّف الإنسان، بل ردة فعله أمام القصد.

ولهذا، كتبت في دفترها الجديد:

"أنا لست نازحة فقط، أنا من رأّت الجحيم وقررت أن تمشي."\*

ريمان الأبيض – كاميرا في خيمة

كانت ريمان الأبيض، ابنة الثلاثة والثلاثين عامًا، تهوى التصوير بهاتفها المحمول. قبل الحرب، كانت تلتقط الصور لأكوام القهوة، لظلال شجرة في الشارع، لضحكة ابنتها وهي تركض بين الغرف. "أحب التفاصيل الصغيرة... لأنها تقول الحقيقة التي لا يراها أحد."

لكن بعد النزوح، لم تعد الصور مجرد هواية.

صارت رسائل توثيق، وصدى لما تحاول الحرب أن تبتلعه من ذاكرة.

في الليلة التي فرت فيها من منزلها، كانت ترتجف، لكنها أمسكت هاتفها بإحكام. لم تنس أن تلتقط صورة للباب قبل أن يغلق للمرة الأخيرة.

تقول:

"كنت أعرف أنني سأشتاق لصوت المفاتيح، لشكل السجادة، حتى لغبار الرفوف."

في المخيم، بدأت ريمان توثق الحياة من جديد:

طفلة تغسل يديها بماء من علبة بلاستيكية، أم تضع وسادة من الثياب تحت رأس رضيعها، عجوز يجلس أمام خيمته كأنه ينتظر رسالة من السماء.

تتحرك بين الخيام، لا تزعج أحدًا، تبتسم، وتقول دائمًا:

"هل تسمح لي بصورة؟ أريد أن أقول للعالم إننا ما زلنا نعيش."

WWW صورها لا تحوي دمارًا فقط، بل حياة تقاوم. عينٌ تلمع في العتمة، رغيف على حجر، خيوط غسيل تعلق عليها النساء بقايا الأمل.

بعضهم سخر منها: "ماذا تفعلين بكاميرا مكسورة في زمن الجوع؟"

فترد بابتسامة هادئة:

"سأطعم العالم من أعيننا... حتى لا يقولوا إننا كنا مجرد أرقام."

أنشأت مجلدًا في هاتفها اسمه "\*\*الوجه التي لا تنكسر\*\*"، تحفظ فيه صورًا لكل من مرّ أمام عدستها، وتقول:

"إن استشهدنا، ستبقى وجوهنا تتكلم."

لا تملك سوى هاتف قديم، وبطارية تنهار سريعًا، لكنها تصرّ كل يوم على شحنه بأي طريقة لتوثق لحظة واحدة على الأقل. لحظة لا تعود.

ريمان الأبيض، 33 عامًا، لا تصوّر لتشتهر، بل لتقاوم.

كاميرتها ليست سلاحًا، لكنها أقوى من الرصاص حين تُظهر الحقيقة.

ولهذا، صارت تُعرف في المخيم باسم:

"\*\*العين التي لا تنام.\*\*"

وتكتب أحيانًا تحت صورها:

\*"نحن لا نطلب الشفقة... فقط انظروا إلينا كما نحن، قبل أن تُطمس الحكاية."\*

السيدة سناء وصناعة الحياة من بقايا الحرب

وسط خيام النزوح، وبين صفوف الطين والحجارة والقلق، عاشت السيدة سناء ياسر، امرأة خمسينية تحمل في عينيها ذكاء الفن، وفي أصابعها حنان الأمومة. لم تكن سناء فنانة مشهورة، ولا صانعة دمي محترفة، لكنها كانت تعرف سرّاً أن تسرق لحظة فرح من قلب المأساة، وأن تبذر بذور الطفولة في أرض اليأس.

بدأت حكايتها عندما رأت طفلة تبكي لأنها فقدت دميها في الركاب. يومها، جمعت سناء قطعة خشب، وقطعة قماش قديمة، وخيطاً ممزقاً من طرف غطاء، وجلست في مدخل خيمتها تصنع أول دمية. لم تكن مثالية، لكن عيون الطفلة لمعت بها كما لو أنها ملاك صغير نجا من القصف.

من تلك اللحظة، لم تتوقف. كانت تصنع دمي خشبية وقماشية وتوزعها على الأطفال كأنها توزع الضوء في عتمة الخيام. شيئاً فشيئاً، تعلق بها الأطفال، وراحت الفتيات يأتين إليها، يسألنها: "علمينا يا خالة".

وما لبثت أن فتحت ورشة صغيرة تحت ظل خيمتها، تعلم فيها الفتيات فنّ الخياطة والتطريز والنحت بالأدوات المتاحة. وهكذا، ولدت مدرسة سرّية بين ركاب الحرب. خلال أشهر قليلة، صار في كل خيمة فتاة تصنع العرائس بيديها، وتبتكر وجوهاً ووظائف وملايس، وتمنح إخوتها ضحكة من القماش.

لكن سناء لم تتوقف عند هذا الحد. صارت تجمع العلب المعدنية الفارغة التي يُلقى بها قرب الخيام، وتعيد تشكيلها على هيئة دمي متحركة. صنعت خيوطاً من النايلون المهترئ، وبدأت تُحرّك العرائس بإبداع، وكأنها تُقيم مسرحاً من الأمل.

جمعت بعض الصناديق الخشبية، وغطتها بقطعة ستارة ممزقة، وبنّت مسرحاً صغيراً وسط المخيم. وجعلت من كل عرض مسرحية تُعيد للأطفال ذكريات الوطن، وحكايات الجدة، وحوارات البهجة المفقودة.

كانت الدمي تتكلم بلهجتهم، وترقص مثلهم، وتبكي وتضحك وتتمرد مثلهم. كانت سناء، بعرائسها، تقول ما لا يقال، وتحكي ما لا يُروى.

في كل عرض، كانت الخيام تصمت، ويستمع الأطفال والكبار وكأنهم في قاعة حقيقية. كانت تلك العرائس تمثل الجميع، وتقول: نحن هنا، لا زلنا نلحم.

السيدة سناء، بحبها وحرفتها، حوّلت الألم إلى فنّ، والمعلبات إلى شخصيات، والخيمة إلى مسرح. أثبتت أن الخيال لا يُقصف، وأن الفن هو آخر ما يسقط.

### الجدة رضية... حارسة الحكايات في زمن الخيام

في السبعين من عمرها، كانت الجدة رضية موسى علي تمشي بخطى بطيئة، لكنها تحمل في ذاكرتها خطى ألف عام. لم تكن فقط امرأة عجوزًا تجلس على طرف الحصير في خيمة النزوح، بل كانت مكتبةً حيّة تمشي بين الناس، بصوت رخيم، وذاكرة زاخرة بالقصص، وأسلوب يجعل الأطفال يفتحون أفواههم دهشة، والنساء يضحكن، والرجال يعودون أطفالاً.

في كل مساء، وبعد أن يهدأ صخب النهار، وتبرد الألواح المعدنية التي تغطي الخيام، كانت الجدة رضية تجمع من حولها الجميع. لا فرق بين طفل وشيخ، بين أمّ وفتى. كان الناس يأتون من خيام بعيدة ليجلسوا حولها، كأنها نار مقدّسة تشعل الذاكرة وتدفي القلب.

تحكي عن "الغولة" بأسنانها الطويلة وعينها الممتدتين، وعن "أبو رجل مسلوخة" الذي يركض في الليل ويخيف الغرباء، وعن "طنجر" المخادع الماكر، وعن "الخطاب" الذي فقد عروسه بسبب كبرائه، وعن "الديك الهذار" الذي صاح ذات صباح وكشف سرّ اللصوص. كانت تحرك يديها، تغير نبرة صوتها، تضحك وتبكي، وتمنح لكل شخصية روحًا، ولكل جملة موسيقى.

لم تكن القصص مجرد حكايات خيالية، بل كانت حياة بديلة، ملأًا من الواقع القاسي. كان الأطفال ينسون الجوع وهم يستمعون، وكانت الأمهات ينشغلن عن الحزن لحظات، وكان الرجال يتنفسون من ضيق الحياة بعض اتساع.

في زمن الحرب، كانت الجدة رضية بطلّة بلا سلاح، تقاقل النسيان بالحكاية، والعتمة بالكلمة.

قالت عنها فتاة صغيرة: "خاله رضية تحكي كأنها ساحرة، وأنا لا أنام إلا إذا سمعت حكاية منها".

وقالت عنها امرأة نازحة: "هي الذاكرة الجماعية، هي آخر جدار في قريتنا، آخر شجرة زيتون".

ربما لم تكن الجدة رضية تعرف القراءة والكتابة، لكنها كانت تحفظ من القصص ما لا تكتبه المكتبات.  
وكانت تعرف أن الحكاية تُشبه الخبز، لا تُؤكل لكنها تُشبع.

في كل مخيم نزوح، كانت الجدة رضية تجلس في قلب الدائرة، تنسج الحكايات، وتوزع البهجة، وتُعلم الصغار أن الخوف يُهزم بالكلمة، وأن الغولة لا تنتصر إذا عرفنا كيف نرويها.

السيدة نسرین إیاد... أمٌ بثلاثة أجنحة مكسورة

في خيمة صغيرة على طرف أحد مخيمات النزوح، تعيش السيدة نسرین إیاد، امرأة في الرابعة والأربعين من عمرها، تحمل فوق كتفها ما لا يُحتمل. أمٌ لثلاثة أطفال من ذوي الإعاقة، وزوجةٌ لرجل اعتقلته قوات الاحتلال الإسرائيلي منذ أكثر من عام، ولم تعد تسمع عنه شيئاً إلا من خلال محامٍ صامت ونوافذ مقفلة.

ليست الحرب فقط من نزعتها من بيتها، بل الحياة نفسها تقف أمامها كل صباح تتحداها.

تستيقظ نسرین قبل الجميع، تنقل ابنها الأكبر من كرسيه المتحرك إلى بطانية وضعتها قرب فتحة التهوية، تدلك ذراعيه، وتغني له بلحن قديم لا يزال يضحكه. ثم تعتني بابنها الثاني، الذي يعاني من إعاقة ذهنية، وتبدأ معه يوماً طويلاً من التهذنة والحكايات البسيطة. أما الثالث، فصغير في السن، لكنه لا يتكلم، وتقول نسرین إنه لا يحب الضوء، ويهدأ فقط إذا احتضنته لوقت طويل.

الخيمة ليست بيتاً، والبطانية ليست فراشاً، والمعلبات ليست طعاماً، لكنها تفعل المستحيل. تحمل الأولاد جميعاً على كتفها، تخرج بهم إلى طابور المساعدات، أو تأخذهم إلى النقطة الطبية، أو تقف معهم أمام شاحنة المياه. لم تطلب شيئاً من أحد، فقط كانت تقول: "أريد أن أبقى واقفة... من أجلهم".

في المساء، تغني لهم. تخرع ألحاناً من صوتها، وتحكي عن أبيهم الذي كان يزرع الورد على شرفات غزة، وعن بيتهما الذي صار أنقاضاً، وعن البحر الذي وعدهم أن يذهبوا إليه بعد العيد... لكن العيد لم يأت، والبحر صار بعيداً جداً.

كل من يعرف نسرین يشهد أنها بطلة بلا شهود. في الخيمة رقم 37، هناك ثلاثة أولاد لا يضحكون إلا معها، ولا يأكلون إلا من يدها، ولا ينامون إلا عندما تغطيهم وتهمس: "أنتم الحياة... والباقي مؤقت".

تقول إحدى الجارات عنها: "لا تبكي إلا بصمت، ولا تصرخ، لكنها تنهار أحياناً إذا رأى أحدهم ظل أبيه في الحلم".

نسرين لا تنتظر أن تُكافأ، ولا أن تُذكر في نشرات الأخبار. هي فقط تقاثل بصبر أمومي، وتحارب بالعناية، وتحمي أبناءها من الانهيار، رغم أنها هي من يستحق الحماية.

في مخيمات النزوح، لا يُقال اسم نسرين كثيرًا، لكن كل من مرّ بخيمتها، يعرف أن الأمل له صوت، وهو يشبه صوتها تمامًا.

السيدة عبير حسين... معلمة اللغة والأمل في زمن النزوح

في الخامسة والأربعين من عمرها، وبين خيام تمزقها الريح ووجوه تغمرها الحيرة، اختارت السيدة عبير حسين أن تقف، لا على أطلال مدرسة، بل على عتبة خيمة، وتمسك طبشورة من فحم وكراسة مستعملة، وتبدأ رحلتها في تعليم اللغة العربية لأطفال الحرب.

لم تكن عبير تدرّس في مدرسة نظامية، ولم يكن لديها سبورة، ولا مقاعد، ولا كتب مدرسية، لكن كان في قلبها ما يكفي من الإيمان بأن الحرف يُنقذ، وأن الكلمة تُعالج، وأن الشعر في زمن القصف قد يكون أقوى من السلاح.

بدأت بجمع الأطفال تحت شجرة قريبة من الخيام، وضعت حجارة على شكل دائرة، وجلست في الوسط تقرأ لهم: "قال الشاعر...". كانت تعلمهم الحروف، ثم الكلمات، ثم الجمل. وسرعان ما بدأت الدفاتر تنفتح مثل أزهار في يد الأطفال.

كتبت طفلة: "أبي في السماء، وأنا أكتبه كل يوم حتى لا أنساه."

وكتب طفل آخر: "بيتنا في قلبي، وسأبنيه على الورق حتى نعود."

لم تكن عبير مجرد معلمة، بل صارت شعلة ثقافية داخل المخيم. كانت تجلب قصصًا بسيطة، وتقرأها بصوت عذب، وتحفز الأطفال على كتابة نهاياتهم الخاصة، وكانت تقول لهم دائمًا: "في كل واحد منكم كاتب صغير ينتظر أن يُكتشف."

تحوّلت خيمتها إلى نادٍ أدبي صغير. الأطفال يكتبون الشعر، ويقرؤون قصصهم أمام بعضهم البعض، ويخترعون شخصيات تُشبههم: طفل يبحث عن أمه، بنت تنقذ إخوتها، شجرة تتكلم، وريح تحكي أسرار البيوت المهجورة.

قالت عبير في إحدى الجلسات: "أنا لا أعلم فقط اللغة، أنا أعلم أن نعيش رغم كل شيء. الحرف وطن، والقصة خيمة، والشعر شجرة لا تُقصف."

ورغم ضيق الحال، كانت تطبع نصوص الأطفال بخط يدها، وتعلقها على حبال الغسيل لتقرأها الأمهات والآباء عند مرورهم. كانت تؤمن أن القصص تُشفى إذا كُتبت، وأن الشعر يُضيء حين نقرأه على بعضنا البعض.

في زمن النزوح، كانت السيدة عبير تبني وطنًا صغيرًا من اللغة، وتمنح الأطفال ما هو أوسع من الخيمة: الخيال. وفي كل مساء، كان الأطفال يحملون دفاترهم ويذهبون إليها، لا ليتعلموا فقط، بل ليكتبوا عن العالم كما يحلمونه، لا كما هو.

وهكذا، صنعت عبير من الحرف مقاومة، ومن القصة بيتًا، ومن اللغة حضنًا يتسع للنازحين جميعًا.

السيدة سماح اللي... خبز الحب ومفاجآت من لا شيء

في قلب خيمة صغيرة مهترئة الأطراف، وسط مخيم للنزوح يعجّ بالأسى، كانت السيدة \*\*سماح اللي\*\* تصرّ أن تحيا بروح مختلفة. في الرابعة والأربعين من عمرها، لكنها تشبه الربيع في نبرتها، وتُشبه الجدات الحنونيات في ابتسامتها. لم يكن لديها مال، ولا أدوات مطبخ فاخرة، ولا وصفات من كتب الطهي، لكن كان لديها \*\*قلب يحب المفاجآت\*\*، وروح لا ترضى أن تستسلم للضيق.

كانت سماح تؤمن أن "البيت ليس جدرانًا، بل شعور". وفي غياب البيت، قررت أن تصنع هذا الشعور بيديها. كانت تفتش في صناديق المساعدات، تجمع ما تبقى من العدس والبقول والحمص والمعكرونة، وتخترع منها "مفاجآت" تدهش بها عائلتها.

في أحد الأيام، جمعت حفنة من الفول وكسرت بعض العدس، ثم خلطتهما معًا برشة سكر ودهشة. صنعت منها "صينية حلويات" ووضعتها وسط الخيمة، وقالت لأطفالها: "اليوم عيد!".

ضحكوا، ولم يعرفوا أن أهم صنعت الحلوى من لا شيء، إلا من حبها لهم.

وفي يوم آخر، لم تجد طحينًا، فأخذت بقايا المعكرونة اليابسة، وطحنتها، وخلطتها بالماء والملح، وصنعت منها رغيف خبز ساخن. حملت الرغيف بين يديها كأنها تحمل طفلًا، ووضعت على قطعة قماش نظيفة، وقالت: "هذا خبز الأمل... بطعم الغد".

حتى الحمص، لم يسلم من ابتكاراتها. حمصته وطحنته مع بعض الأعشاب، وخلطته بزيت الزيتون والليمون، وقالت: "هذه دقتنا الخاصة، من قلب الخيمة إلى قلب الطنجرة".

كانت المفاجآت عند سماح بسيطة، لكنها \*\*تحدث ضجة من الفرح\*\*.. كان أطفالها ينتظرونها كما ينتظرون العيد، يفتحون عيونهم على رائحة مختلفة، ويتسابقون على الجلوس حول طبق الأم الذي تفننت فيه كأنها تُزيّن مائدة ملوك.

قال عنها أحد الجيران: "أم سماح تصنع من المعلبات مهرجاناً... تطبخ بالحب، وتقدم الحياة ساخنة".

وفي المخيم، صارت حكايات مفاجأتها تتناقل بين الخيام، كأنها وصفات سحرية، أو قصصاً عن انتصار امرأة على الحرب بالملاعق الخشبية.

سماح لم تكن طاهية محترفة، لكنها كانت \*\*تطهو الأمل\*\*.. في كل وجبة كانت تقول لعائلتها دون أن تنطق: "أنا هنا... ولن أسمح للجوع أن يُطفئ الفرح فيكم".

هكذا كانت خيمتها... ضيقة، لكنها دافئة. فقيرة، لكنها مليئة بالمفاجآت.

الطبيبة فخرية عماد... مضاد حيوي في زمن القهر

في سن الأربعين، وبين عشرات الخيام التي تننّ من التعب والبرد والجوع، كانت الطبيبة \*\*فخرية عماد\*\* تقف بثبات يشبه الجبال. لم يكن معها فريق طبي، ولا أدوات معقمة، ولا غرف عمليات، لكنها كانت تؤمن أن الطبيب لا يحتاج إلا إلى قلبه وعلمه وضميره ليبدأ.

اختارت فخرية أن لا تغادر المخيم، رغم أن بإمكانها ذلك. رفضت العروض بالعمل خارج حدود الدخان، وقررت أن تبقى حيث الجرح مفتوح، والناس بحاجة ليد تُنقذهم.

من أول يوم نزوح، علقت قطعة قماش فوق خيمتها، وكتبت عليها بخط يدها المرتجف: \*\*مضاد حيوي\*\*.. كانت تعني بها نفسها، رسالتها، إيمانها بأن الجسد حين يُحترق بالقذيفة، فإن الحنان والمعرفة هما الترياق.

داخل خيمتها، أجرت عمليات صغيرة تحت ضوء مصباح يعمل بالبطارية. عالجت الجروح، وخاطت الجفون، وأخرجت شظايا من أجساد الأطفال، وأعطت الإبر للمسّنين، وطمأنت الأمهات، ولقّت الضمادات حول أقدام فقدت أحذيتها.

لم تكن أدواتها طبية كما يجب، لكنها كانت تُعَمِّمها بالماء الساخن والدعاء.

وكانت تقول: "الخيمة لا تمنع الشفاء... ما يمنعه هو الغياب".

تتكس حول خيمتها يومياً النساء والأطفال والشيوخ، وكل من لديه ألم. يأتونها بقلوب خائفة، ويخرجون بقلوب مطمئنة. كانت تبتسم دائماً، وتُخفي دموعها في منديلها.

قال عنها أحد الرجال: "هي مستشفى بخيمة... وسكينة في زمن الجنون".

في أحد الأيام، أنقذت طفلة من التهاب حاد كاد أن يفتك بها. في اليوم التالي، رسمت الطفلة وردة حمراء على خيمة الطبيبة، وكتبت بجانبها: "\*\*\*الطبيبة فخرية... تحبنا وتُشفى\*\*\*".

رغم تعبها، لم تتوقف. كانت تعرف أن مهمتها أعمق من مداواة الأجساد. كانت تُداوي الخوف أيضاً، والعزلة، والانكسار. تقول دوماً: "أنا لا أعطي الدواء فقط، بل أعطي أملاً بأننا لم ننته بعد".

في كل مخيم نزوح، كانت خيمتها تحمل الاسم ذاته: "\*\*\*مضاد حيوي\*\*\*". ليس لأنه علاج طبي، بل لأنها كانت، بالفعل، \*\*\*مضاداً لكل ما يحاول أن يميت الحياة\*\*\*.

الطبيبة فخرية عماد، لم تكن فقط تعالج، بل كانت تُعيد تعريف الطب في زمن الطين والخوف... وكانت تقول: "طالما قلبي ينبض، سأقاتل بالضماد والحقنة والحنان".

السيدة سامية الجملي... الحناء في زمن الحرب

في الثلاثين من عمرها، وصلت السيدة \*\*سامية الجملي\*\* إلى مخيمات النزوح وهي تحمل حقيبة صغيرة لا تكاد تسع شيئاً، لكنها كانت مليئة بالحناء، وألوان الصبر، وشهادة في فن التجميل.

ما إن استقرت في خيمتها حتى بدأت تلاحظ ما لا يُنسى: الشيب الذي انتشر فجأة في رؤوس النساء، وكأنه وردة حزينة نبتت من رعب القصف، والركض في الليل، وصوت الطائرات وهي تُمزق الغيوم والخيام معاً. كان الشعر الرمادي في رؤوس الأمهات والمسّنات وحتى الشبابات، لا يشبه الكبر، بل يشبه الخوف إذا اختبأ في الجذور.

قالت سامية في نفسها: "هؤلاء النساء جميلات، لكن الحزن يُغلق وجوههنّ كنافذة بلا ضوء".  
فقررت أن تفعل ما تُجيده: أن تداوي الجمال بالحناء.

في صباح يومٍ دافئ، وضعت سامية لافنة صغيرة عند مدخل خيمتها:  
\*\*"حناء وكحل مجاناً... للنساء فقط"\*\*. \*\*

وفي المساء، بدأت النساء يتوافدن إليها. بعضهن خجولات، وبعضهن كنّ يضحكن كأنهن تذكرن شيئاً قديماً. كانت سامية تجلس كل واحدة منهن، وتبدأ برسم لون جديد فوق الشعر الرمادي: لون نحاسي، أو أحمر خمري، أو بني دافئ يشبه لون التراب في قرينتهن البعيدة.

ثم تخرج من حقيبتها الصغيرة علبة كحل أسود، وتقول: "عيونكن لا يجب أن تبقى باهتة... الحزن لا يليق بها".  
وتكحل أعينهنّ، واحدةً واحدةً.

ببطء، تغيّرت الوجوه. ملامح كنّ حزينة أمس، صارت اليوم ناعمة، وفيها بريق خفيف. كان الأمر بسيطاً، لكنه عميق: لم يكن مجرد تجميل، بل \*\*استعادة للكرامة، ولمسة أنثى ترفض أن تُمحي تحت الخيمة\*\*.

قالت عنها إحدى النساء: "سامية لم تُصبغ شعري فقط، بل غسلت قلبي من الداخل".  
وقالت أخرى: "في المرأة، رأيتني كما كنت قبل الحرب... نسيت أنني جميلة".

سامية لم تكن ساحرة، لكنها عرفت أن اللون دواء، وأن الحناء جسر بين الذاكرة والمرأة، وأن الكحل ليس زينة فقط، بل درع يحمي العيون من البكاء المتكرر.

وهكذا، صارت خيمتها محجاً للنساء. فيها ضحك، ولمسة حنان، وبقايا مرآة تعيد تشكيل الأمل.

في مخيمات النزوح، حيث كل شيء باهت، كانت \*\*سامية الجملي\*\* ترسم الحياة بلون الحنّاء، وتُعيد للنساء وجوههن التي كادت الحرب أن تمحوها.

الحكايات التي لم تُحرق

بقلم: منى المصري، 47 عامًا – نازحة من غزة

في الركن الشرقي من بيتي، كانت مكتبتي تقيم طقوسها كل مساء.

خزانة خشبية بلون العسل الداكن، تعبق برائحة الكتب، وتفتح قلبها لكل من أراد أن يتدفأ بالكلمات.

كنت أقول دوماً: "إذا ضاق البيت، تتسع له المكتبة."

وفيهما روايات قديمة، كتب تفسير، قصائد لحنا مينا ومحمود درويش، وصور عائلية ورسائل قصيرة كتبها زوجي قبل أن يغادر هذا العالم.

اسمي منى المصري.

أبلغ من العمر سبعة وأربعين عامًا.

كنت أعلم ابنتي القراءة من صفحات كتب لا تُشتري، بل تُؤتمن.

وكان بيتي أشبه بمحراب صغير للمعرفة، فيه أهدأ، وأنتفس، وأبكي في صمت بين صفحات أحبها.

ثم اشتعلت الحرب.

ليلة واحدة فقط كانت كافية لتحرق مكتبتي، وألبوماتي، وصوت زوجي من بين الأوراق.

لم أستطع إنقاذ شيء.

خرجت من بين الركاب وأنا أحمل ابنتي، وقلبي، وعيونًا جافة من شدة الذهول.

نزحتُ إلى خيمة على طرف المخيم.

كانت الخيمة بلا كتب، بلا حروف، بلا ظلٍ حتى.  
وفي الليلة الأولى، سألتني طفلة في الخيمة المجاورة: "يا خالة، احكي لي قصة عشان أنام."  
ارتجفتُ. لقد نسيثُ كل القصص... أو هكذا ظننتُ.

أغلقت عيني.

وتذكّرت أول سطر من كتاب أحببته: "في البدء كانت الكلمة."

فبدأت أحكي.

عن سمكة تعاند الموج، عن طائر ضاع في الدخان، عن طفلة تدفن عروستها تحت الوسادة حتى لا تراها الحرب.

ومنذ تلك الليلة، صرْتُ أحكي كل مساء.

أجمع الأطفال حولي كأني مصباح في ظلامهم، وأرتّب الرمال لتكون بساطًا لحكايتي.  
لم أعد أملك كتبًا، لكنني أملك ذاكرتي، وأملك نبرة صوتي حين أقول: "كان يا ما كان..."

بعض القصص كنت ألقّها، أخلق النهايات السعيدة، أخطئ الأمل بخيط الخيال.

كان الأطفال يبتسمون، وكانت بعض الأمهات تبكي دون أن ترفع رؤوسها.

ثم صار الأطفال ينادونني "خالة الكتب"، رغم أنني لم أعد أملك كتابًا واحدًا.

وفي صباح رمادي، جاء طفل صغير، يحمل ورقة من كرتونة مُمزقة، وقال لي:

"أنا كتبت قصة، عن طيارة صغيرة بترجع للبيت."

ضممت الورقة إلى صدري. شعرت بشيء يشبه القيامة.

لقد ولدت الحكاية من جديد، على يد طفل نازح.

أدركتُ حينها أن الحكايات لا تموت.

قد تحترق الكتب، وقد تغيب الرفوف،

لكن الحكاية، حين تسكن في قلب أمّ، لا يمكن لظنينة أن تطفئها.

وإذا سقطت الكلمات من رفوف الخشب، فإنها ستنمو من فم أمّ، وتزهر في قلب طفل.

إبرة الخيط الأخيرة

بقلم: وداد عبد الرحيم، 62 عامًا – نازحة من غزة

كانت الآلة هناك، في زاوية الغرفة، ثقيلة كذكرى، صامتة كأم شهيد.  
آلة خياطة سوداء، ورثتها عن أمي، التي كانت تخط للنساء ثياب الفرحة وثياب الحداد بصبر متساو.  
كبرت وأنا أراقبها تدير العجلة، تغرز الخيط في القماش، وتغزل أيامنا بحنان لا يُقال.

اسمي وداد عبد الرحيم، أبلغ من العمر اثنين وستين عامًا.  
قبل الحرب، كنت أعيش من يدي، ومن صوت الإبرة الذي صار جزءًا من نبضي.  
كنت أخط لكل نساء الحارة: فساتين المدرسة، جلابيب العيد، ستائر المطبخ، بل حتى قلوب الأمهات التي تفتقت من الانتظار.  
الملابس كانت تخرج من تحت يدي كما لو أنها تنبض، وكان الفرحة يُطرز على أطرافها بغمزة من أمل.

ثم جاء القصف.

سقط البيت.

احترق السقف، وتبعثرت الصناديق، وذاب العطر من الأدراج.  
لم آخذ شيئًا.  
لم آخذ صوري، ولا شهادات أولادي، ولا فناجين القهوة التي ورثتها عن جدتي.  
لكنني حملت الآلة.

كانت ثقيلة، نعم، لكنها كانت روجي.

نزحتُ إلى خيمة على طرف المدينة.

ريح الشتاء تمر من بين الثقوب، والماء يتسرب من السقف البلاستيكي، لكنني كنت أضع الآلة في وسط الخيمة كما لو أنها مذبح مقدّس.

في الأسبوع الأول، جمعتُ بقايا قماش من كراتين الإغاثة.  
خيطت أغطية رقيقة للأطفال، وخمائرًا لامرأة فقدت كل شيء إلا حياءها،  
وخيطت ثوبًا أخضر لفتاة يتيمة قالت لي: "أريد أن أبدو كزهرة في هذا الخراب."

في اليوم العاشر، جاء رجل شائب، يحمل كيسًا فيه قماش أبيض.  
قال لي بصوت منكسر: "هل يمكنك أن تخطي كفنًا لابني؟"  
تلعثمتُ. سقط الخيط من يدي. ثم أومأت برأسي.  
كنتُ أرتجف وأنا أطرز الموت، لكنني كنت أضع في كل غرزة دعاء:  
"اللهم اجعل هذا القماش نورًا، لا كفنًا."

كل من في الخيمة صار يعرف صوت آلتِي.  
قالوا لي: "صوتها يعطينا أملًا، كأنك تخطين غزة من جديد."  
وكنت أشعر بذلك حقًا.  
أخيط قطعة فوق قطعة، مثل من يجمع تراب وطنه بيديه.

اليوم، ورغم المرض، وضيق اليد، ما زلت أخيط.  
ما زلت أداوي النساء بالخيط والإبرة.  
وكلما انتهيت من ثوب، رفعتُ عيني إلى السماء وقلت:  
"الحرب مزّقت كل شيء... إلا قلبي، وما زلت أحيكه حتى لا يتبعثر."

البيت الذي بجوار قلبي

بقلم: سارة خليل، 55 عامًا – نازحة من غزة

كانت جارتها.

لكنّ سعاد لم تكن مجرد امرأة تسكن في البيت المجاور، بل كانت شقيقتها التي لم تلدها أمها، وظلاً يوازي ظلها في كل صباح، وضوءاً دافئاً في عتمة الأيام.

اسمي سارة خليل، أبلغ من العمر خمسًا وخمسين عامًا.

قبل الحرب، كنت أعيش في بيت صغير، يلاصق بيت سعاد.

كانت شرفة بيتي تُطل على شرفة بيتها، وكان الندى الصباحي لا يعرف لمن تنتمي أزهار الريحان بيننا.

كنا نتقاسم الخبز، والملح، والدموع، والضحكات.

حين تمرض واحدة منا، تحضر الأخرى الشوربة، والماء، والدعاء.

وحين تفرح إحدانا، تُعلق الأخرى الزينة قبلها.

كنت أحبها.

ليس حباً رومانسياً كما في الروايات، بل حب النساء لبعضهن حين تشدد الحياة.

كنا نحب أن نغني معاً أغاني أم كلثوم ونحن نغسل الملابس، ونضحك حتى نتعب أضلاعنا حين نحكي عن الجارات، ونخطط لنزوح أبناءنا من بنات بعضنا، ونبني بيتاً واحداً لنا في الجنة.

ثم جاءت الحرب.

في ليلة واحدة، سقط البيت المجاور.

سقط قلبي.

ركضتُ وأنا أصرخ باسمها، حفاةً فوق الركام، أبحث عنها بين الغبار والدم.

لكن كل ما وجدته هو بقايا وشاحها الأزرق، وأصيص الريحان مكسوراً عند الباب.

منذ ذلك اليوم، وأنا بلا جارة.

نزحتُ من الحي، من الذكرى، من ذاتي.

سكنتُ خيمةً في آخر المخيم، بين نساء لا أعرفهن، وحكايات لم أشارك في صنعها.

أفتح عيني كل صباح فأفتقد صوتها يناديني: "سارة، قهوتك بردت!"

ولا أحد هنا يعرف أنني كنت أشرب قهوتي فقط لأنها كانت تصنعها.

كنت أحبها، وأحب البيت الذي كانت فيه، والحائط المشترك بيننا، وعلبة السكر التي لا نغلقها أبداً.

واليوم، لا بيت، ولا سعاد، ولا حتى ريحان.

لكنني ما زلتُ أزرع ريحاناً في علبة معدنية قرب باب الخيمة.

وأحكي لبنات المخيم عن جارتي، عن سعاد، عن المرأة التي كانت تسند عمري.

وحين يسألنني: "هل ماتت؟"،

أقول لهنّ: "لا، لقد انتقلت إلى بيتي الذي في قلبي."

ألوان تحت الركام

بقلم: نرجس زكي محمد، 33 عاماً – نازحة من غزة

كان الرسم هو الهواء الذي أتفّسه.

لم يكن هواية، بل نافذة أطلّ منها على العالم حين يضيق.

كلما اختنقتُ من الأخبار، من صفارات الإنذار، من صوت المروحيات، كنت أهرب إلى لوحتي. أمدّ أصابعي إلى الألوان،

وأغمس روعي في الأزرق، والأخضر، والبرتقالي، كما لو أنني أغسل بها حزني.

اسمي نرجس زكي محمد. أبلغ من العمر ثلاثاً وثلاثين عاماً.

قبل الحرب، كان بيتي لوحة.

رسمت على كل جدار فيه شيئاً مئّي:

شجرة ليمون تنمو على الحائط الشرقي،

غيمة تتدلّى من سقف المطبخ،

نافذة تطلّ على بحيرة صامتة في الممر،  
وعصافير زرقاء تحلّق قرب السرير.

كنت أعيش داخل حلمي، أخط ألواني بالحب، وأحوّل الجدران البيضاء إلى حدائق.

ثم جاءت الحرب، وانطفأ الضوء.

لم يكن لدي وقت لأحمل شيئاً، لا فرشاة، ولا لوحة، ولا حتى صورة.

غادرت البيت وأنا أسمع في داخلي صوت الجدران تبكي.

كل لوحة رسمتها كانت تبكي.

كل زهرة على الجدار كانت تتوسل إليّ: "خُذيني معك"،

لكنني لم أستطع.

نزحتُ إلى خيمة على حافة المدينة. لم يكن فيها كهرباء ولا مرآة ولا باب.

لكنني علّقت قماشاً قديماً وبدأت من جديد.

حولت الخيمة إلى معرض صغير،

رسمت على الأقمشة، على كرتونة الطحين، على وجوه الأطفال.

كنت أزرع الطبيعة في قلب الصحراء.

غير أن الحرب لا تكتفي بخراب واحد.

كلما اعتدت على مكان، اقتلعتُ منه من جديد.

خسرت كثيراً من لوحاتي.

بعضها دهسته الشاحنات،

وبعضها تمزق تحت المطر،

والبعض بقي معلّقاً في خيم مهجورة لا أعرف طريقها.

مع كل نزوح، كنت أفقد لونها من قلبي.

الأحمر صار رمادًا.  
الأخضر صار باهتًا.  
والأزرق اختنق تحت الغبار.

اليوم، لم أعد أرسم كما كنت.  
فرشاتي مكسورة، ولوحاتي ناقصة، وقلبي مشوش.  
لكن حين ينام الجميع، أفتح في عقلي جدارًا أبيض،  
وأرسم عليه بيتًا بلا قذائف،  
وسقفًا تحوم فوقه حمامة،  
وشجرة نرجس لا تُقتلع أبدًا.

## الخرانة

رائدة حسين، 45 عامًا – نازحة من الدير، غزة

على حافة البحر، قرب خيمة بلا باب، جلستُ أكتب.  
ليس لأنني كاتبة، بل لأن البحر، في تلك اللحظة، كان أحزنّ من العالم، ولأن الورق كان الشيء الوحيد الذي لا يُقصف.  
أنا رائدة حسين، أبلغ من العمر خمسةً وأربعين عامًا. وفي عمري هذا، لا أحفظ تواريخ الحروب، لكنني أحفظ عدد الخزائن التي خسرتها.  
آخرها كانت خزانة بنية اللون، قديمة ومتقشرة الحواف، لكنها كانت تقف في زاوية الغرفة كأمّ لا تنام، تحفظ دفء البيت، وسرّه، وحكاياته.

كانت تلك الخزانة تحتوي كل شيء: فساتين العيد، وصور الزفاف، ورسائل ابنتي بخطّ يدها المرتبك، وعباءة والدتي التي ماتت قبل أن تبدأ هذه الحرب.

كنت أفتح درجها الأوسط بحذر، فأجد رائحة جدتي. كنت أطوي فيه مناديل القماش المطرزة، وأخفي عقداً من خرز اشتريته من السوق الشعبي قبل الحرب بسنة، وعلبة حناء جلبها أبي من مكة.  
لم تكن خزانة، كانت زمناً كاملاً، بحيته، وخوفه، وانكساره.

عندما بدأ القصف، لم يكن لدي وقت لأفكر كثيراً. حملت أولادي، وبضع أرغفة، وعبوة ماء، وخرجت.  
لكني نظرت نحو الخزانة كمن يودع ضلعاً من أضلعه.  
حاولت أن أفتحها بسرعة. أردت أن أملاً حقيبة بذكرياتي. لكن كيف أختار من الذاكرة ما يمكن وضعه في حقيبة ظهر؟  
سحبته من طرفها السفلي، فتحركت قليلاً، ثم توقفت. كأنها تقول لي: "أذهبي أنت، سأبقى لأحرس البيت".  
كان الدخان يتصاعد، والغبار يسبق الانفجار.  
اضطرت أن أتركها، وتركت معها جزءاً مني لم يعد.

في الخيمة الجديدة، لا توجد خزائن. فقط أجساد نائمة على بطانيات، وعيون لا تنام.  
كلما نظرت إلى ملابسي، شعرت أن شيئاً ناقصاً. لم تعد لي رائحة البيت. لم يعد لقميصي ذكرى.  
كل شيء صار مبللاً بالمطر والدمع والرمل.

وفي كل مساء، حين أكتب، أفتح في ذاكرتي أحد أدراج الخزانة القديمة. أستخرج منه منديل أمي، أو صورةً باهتةً من زفافٍ قديم، أو ضحكةً خبأتها بين طيات ثوبي.

هكذا أعيش الآن:

أحمل خزائني في قلبي، وأجرها فوق الرمال.

**\*\*كتبتها: هبة عبد الهادي (40 عاماً)\*\***

**\*\*أم لست بنات، وامرأة تُحب بيتها كما تُحب قلبها.\*\***

\*\*رائحة الزعتر في الركام\*\*

لم تكن هبة تحب بيتها فقط، بل كانت تعشقه كما تعشق امرأة سوار زفافها. بيتٌ صغير في أطراف المدينة، تحيطه أصص الرياح والنعناع، وتفتح نافذته الشرقية على ضوء الלהفة كل صباح. لكن قلب البيت الحقيقي كان المطبخ. المطبخ الذي شهد كل لحظة فرح، كل حفلة عيد ميلاد، كل فطيرة زعتر تفوح برائحة الطمانينة، وكل صحن ملوخية تقلبه بناتها الست بشهية وضحك.

كانت تقول دائماً: "البيت يُؤكل من المطبخ".

هناك، كانت "سما" تسرق أصابع البطاطا من المقلاة.

و"قمر" تضع الخبز المحمص جانباً لترسم عليه وجوه البنات باللينة.

وكانت "هدوء" تصب الشاي وكأنها راهبة في قداس خفي.

كان المطبخ أكثر من مكان لإعداد الطعام. كان حكاية. كانت الرفوف تُزيّن بالمناسبات: كوب أحمر من ذكرى خطوبة أختها، إبريق شاي اشتراه زوجها حين عاد من الحج، شوك ومعالق من طقم عرسها الذي اختارته بعناية في أول أيام زواجها.

الطنجرة الكبيرة، تلك التي تطبخ فيها المنسف في العيد، كانت تُعامل كصندوق كنز. والصحون الملونة التي اشتريتها واحدة تلو الأخرى كلما توفّر بعض المال، كانت تبتسم لها كالأصدقاء. لم يكن في مطبخها شيءٌ عادي. كل قطعة فيه مرتبطة بذكرى، بضحكة، بدمعة، بنجاة من قصفٍ سابق.

ثم جاء ذلك اليوم.

انفجرت السماء، وسقط البيت. لم يكن أحد فيه، لكن قلب هبة كان هناك.

عادت في اليوم التالي تبحث بين الأنقاض. لم تبتك حين رأت غرفتها ممزقة، ولا حين وجدت فستان زفافها محروقاً. لكنها حين رأت ملعقة ملوية تحت الركام، تلك التي كانت تحرك بها حساء العدس في برد الشتاء، انهارت.

رفعتها بين أصابعها كما تُرفع طفلة من تحت الأنقاض، ضمّتها إلى صدرها، وقالت لبناتها ودموعها تبلل رماد المكان:  
"هون كنا نعيش... نطبخ الحلم، ونوزعه على ست صحون، ونأكل معه العمر."

لم تأخذ شيئاً من البيت، إلا تلك الملعقة.

علّقتها في خيمتهم المتهالكة، وقالت:

"سنبني مطبخاً جديداً، سنشتري شوغاً جديدة، وصحوناً بألوان أكثر، وسنطبخ الحياة من جديد، ما دام في القلب طنجرة صامدة."

القصة الخامسة"رنا ترسم ظلّها على الخيمة"

لم تكن رنا تعرف معنى الحرب. هي فقط تعرف أنها توقظها من النوم على صوت يشبه الزئير، وتأخذ منها لعبة أو أحًا أو حلماً رسمته في الليل. كانت في التاسعة، وكان اسمها يُنطق دائماً في المخيم مصحوباً بكلمة "المسكينة".

في صباح النزوح، خرجت مع أمها وجدتها ورضيعة ملفوفة بكوفية قديمة. كانت تحمل في يدها دفتر رسم ومقلمة، وتجر بقدمها حذاءً واحداً، لأن الثاني ضاع وهي تهرب من المدرسة التي سقط فوقها السقف.

قطعوا طريق النزوح بين الركام والصرخات. لم تبتك رنا. كانت تمشي خلف أمها تردد: "أنا الظل، لا شيء يؤذي،" كما قرأت في قصة ذات ليلة. حين وصلوا إلى المخيم، لم يكن هناك خيمة جاهزة. جلست العائلة تحت شجرة مكسورة، وناموا على التراب.

في اليوم التالي، ساعدهم بعض الشباب في نصب خيمة مهترئة، وأعطوهم بطانيتين وصندوق مساعدات. وضعت الجدة الرضيعة في الزاوية، وجلست أم رنا تبكي بصمت، كأنها تخطط وجعها بالإبر دون خيط.

أما رنا، فقد جلست قرب باب الخيمة، وأخرجت دفترها. بدأت ترسم كل ما تراه: أمها ببيكاتها الطويل، جدتها وهي تغلي الماء، الرضيعة النائمة، الطابور الذي لا ينتهي، وحتى صاروخاً في السماء، رسمته كسمكة طائرة ضلت طريقها.

مرّت الأيام. صارت الخيمة بيتاً. وصار دفتر رنا نافذتها الوحيدة نحو البقاء. ذات مرة، جاءها صحفي أجنبي، سألها:

– "ما الذي ترسمينه يا صغيرة؟"

أجابت:

– "أرسم ظلّي، لأنني لم أعد أرى نفسي."

– "وأين ظلّك؟"

– "هرب مع أول قذيفة. لكنني أعيدته كل مرة على الورق، كي لا أنساني."

رنا رسمت الطابور طويلاً، لكن بدل الناس، ملأته بطيور. رسمت الخيمة، وجعلت منها صدفةً كبيرة، تسكنها عائلة من اللؤلؤ. حتى الموت، رسمته كملاك نائم على وسادة، يغطّي جسده بعلم الوطن.

في أحد الأيام، سقطت قذيفة على خيمة الجيران. احترقت خيمة، ومات ولد في مثل عمرها. رأته آخر مرة يلعب بالكرة. لم تتكلم رنا، فقط ذهبت إلى دفترها، ورسمت كرة تطير إلى السماء، وخيمة تُزهر منها شجرة.

جاءت إليها أمّ الطفل تيكي. مدت رنا لها الرسمة، وقالت:

– "هو الآن يلعب في السماء. وترك شجرة، ستظل تكبر كل يوم."

بكت الأم، واحتضنتها، ثم قالت للناس:

– "هذه البنات، تحفظنا كلنا في دفترها."

في اليوم الخمسين من النزوح، رأته رنا ظلّها على أرض الخيمة. ابتسمت، وكتبت على آخر صفحة من دفترها:

"أنا ظلّ فتاة... لا تموت"

القصة الثالثة. "سما وردية"

كانت سلمى تعدّ السنوات بعينيها، لا بأصابعها. لم تكن تعرف عمرها تمامًا، لكن الحرب الأخيرة جعلتها تكبر عقداً كاملاً في ليلة واحدة. حين تهدم بيتهم، لم تصرخ. فقط نظرت إلى السماء فوجدتها وردية، كأن الغروب قرر أن يلبس ثوب العزاء بلونٍ جميل ليواسيها.

سلمى، ذات الخمسة عشر عامًا، حملت أمها الجريحة على ظهرها. لم يكن هناك أحد ليساعدها، الأب كان قد خرج ليشتري الخبز ولم يعد، والجيران دفنوا تحت الركام، والطرق امتلأت بالدخان والبكاء.

وصلت إلى المخيم بعد يومين من السير على الأقدام، وهي تجرّ أمها على عربة خشبية سرقتها من محل مهدم. في المخيم، لم تسأل عن شيء، فقط مدت يدها للخيمة الأولى، ودخلت. كانت الخيمة مبللة، تفوح منها رائحة الخوف والعرق والنجاسة. مدت أمها على بطانية خفيفة، وجلست قربها تنتظر أن تستيقظ.

أمها لم تستيقظ.

في اليوم الثالث، سحبت سلمى البطانية ولقت بها الجسد البارد، ثم خرجت تبحث عن أحد يساعدها على دفنه. الطابور على المقبرة كان أطول من طابور الخبز. وقفت فيه بهدوء، تحمل جسد أمها كمن يحمل وعدًا ثقيلًا. لم تبك. فقط كانت تحرق في وجوه الآخرين، تحاول أن تعرف: هل فقدوا أمهم أيضًا؟

بعد الدفن، عادت إلى خيمتها، دون جسد، دون أم، دون وطن.

في الليل، جلست على باب الخيمة، ترسم على الرمال دوائر تشبه رؤوس أمهات كثيرات. رسمت دائرة لأمها، وأخرى لجارتهم التي ماتت وهي تحاول تغطية ابنتها من الشظايا، وثالثة لتلك المرأة التي أنجبت في الطابور وهي تنتظر حصتها من الماء.

سلمى لم تتكلم كثيرًا. كانت تهمس فقط إلى السماء. تتحدث مع الغيوم، تسألها: "لماذا لا تمطر؟" وتحببها الغيوم بصمتٍ بارد.

في اليوم السابع، دخلت إلى صفٍ صغير افتتحته إحدى المتطوعات في المخيم. طلبت منها المعلمة أن تكتب قصة. كتبت سلمى:

"أنا لم أهرب من الحرب، الحرب لحقت بي إلى الخيمة. أنا لا أبكي، لأنني إن بكيت سأغرق الخيمة كلها. أنا لا أنام، لأن كل من أحب نائم في المقبرة. لكنني أكتب. أكتب لأتذكر شكل أمي وهي تقول لي: لا تخافي من الطائرات، هي فقط غيوم تائهة. أكتب لأقول لنفسي إن هذا الليل لا يدوم. أكتب لأنني لا أريد أن أموت بصمت."

وضعت القصة في يد المعلمة، ثم خرجت إلى الطابور، كانت السماء يومها رمادية. لكنها، للحظة، بدت لسلمى وردية من جديد.

## القصة الرابعة "قهوة مرة على باب الخيمة"

اسمها رسمية، لكن نساء المخيم ينادينها "أم الحياة". لم تكن تعرف كيف نالها هذا الاسم، لكن ربما لأن كل من اقترب منها، خرج بشيء من الأمل، أو بشيء من القهوة على الأقل.

رسمية كانت امرأة في منتصف الخمسين، فقدت كل شيء في القصف الأخير على حيّهم. البيت، الزوج، الولد البكر، وابنتها الصغرى التي كانت تغني تحت الدرج حين سقطت القذيفة. وحدها خرجت من الركام، تمشي كأنها تحمل تاريخًا قديمًا لا يريد أن يموت.

في المخيم، لم تطلب شيئًا. نصبت خيمتها بنفسها، صنعت من البطانيات ستائر، وعلقت على باب الخيمة صورة قديمة لها مع زوجها يوم العيد. ثم بدأت مهمتها الجديدة: إعداد القهوة.

كل صباح، كانت تُشعل الحطب قرب الخيمة، وتغلي القهوة على نار الخشب. كانت تقول للنساء الواقفات في الطابور: "ما دام عندي ماء وقهوة، لن تموت الحكاية".

كانت تجلس على كرسي بلاستيكي مكسور، تُنصت لنساء المخيم، تحفظ أسماء أولادهن، وعدد الخبزات التي أخذنها في اليوم السابق، وتضحك من القلب إذا سمعت طفلًا ينطق كلمة "وطن" من فمه الصغير.

ذات يوم، جاءت فتاة في الخامسة عشر إلى الخيمة، ترتجف، تحمل في يدها ورقة بيضاء، وفي عينيها رماد. قالت لها رسمية: – "اجلسي، اشربي قهوة، واحكي لي".

قالت الفتاة:

– "كُتبت رسالة لأمي، لكن لا أعرف أين أرسلها".

– "اقرئيها لي"، قالت رسمية وهي تصبّ فنجانًا صغيرًا.

قرأت الفتاة:

"أمي، خيمتنا الآن قرب البحر، لكن البحر لا يُسمع. كنتِ تقولين لي إنّ في صوت الموج طمأنينة، لكنّ هنا لا شيء يطمئن، حتى النجوم تهرب عند المساء. أمي، نسيتِ غطاء الوسادة المطرّز، وشاحك الأبيض. الخيمة باردة من دونهم. أمي، عودي، فقد تركتُ لك فنجان قهوة ساخن، ينتظر."

رسمية بكت.

لأول مرة، شعرت النساء أن أم الحياة تبكي. وفي مساء ذلك اليوم، لم تُشعل النار، ولم تُغَلِ القهوة.

في اليوم التالي، حين ذهب الأطفال لنداء صباحي في صفّ ارتجالي بين الخيم، سمعوا مناداة من بعيد:

"قهوة أم الحياة... مرّة لكنها تطوّل العمر!"

ضحكوا، وجاؤوا يركضون.

في نهاية الطابور، جلست رسمية، تحمل في حجرها طفلة يتيمة، تُطعمها قطعة خبز، وتقول لها:

"انظري يا بنتي... حتى القهوة تحتاج نارًا كي تصبح طيبة. ونحن هكذا، لن نحترق، لكننا سنصير طيبين، ما دام فينا نفس واحد."

ثم رفعت فنجانها نحو السماء، كأنها تقول للغائبين جميعًا:

"أعدت رسمية القهوة... فهل من عائد؟"

القصة الأولى: "سُكينة الطابور"

لم تكن سُكينة تعرف عدد الأُرغفة التي تحتاجها أسرتها، كانت تحفظ عدد أنفاسهم.

تحسب الجوع مثلما تحسب نبض البنات في الليل، تضع الخبز على نار الهمّ وتهمس: "اصبروا".

كل صباح، كانت تحمل بيدها عبوة ماء فارغة وباليدي الأخرى رغيفًا يابسًا، وتقف في الطابور الطويل.

كان الطابور يشبه جنازة، لكن من دون ميت. أو لعل الميت كان في قلوبهم جميعًا.

سُكينة لم تكن من النساء اللاتي يصرخن في وجوه الرجال، لكنها كانت ترفع حاجبها فقط، فیرتبك الجندي الذي يوزع الطحين، ويرجع خطوة للوراء.

ربما لأنه رأى في عينيها سيلاً من الغضب المكبوت، أو صورة أمه وهي تغزل الصوف قرب كانون مشتعل في خيمة قديمة على حدود الجليل.

في اليوم الذي مات فيه زوجها تحت الركام، لم تبك. جمعت العظام في كيس بلاستيكي، ووضعتها تحت السرير.

قالت للبنات: "سيعود في المنام، لا تزعجه بالبكاء."

وكان يعود فعلاً.

كانت تراه يحمل معها الجالون الفارغ، ويغرس في صدرها صبراً جديداً.

في الخيمة، لم يكن هناك باب، ولا نافذة، فقط قماش مرقع بالبرد والذكريات.

لكن سُكينة كانت تصحو كل فجر، تصلي على تراب مبتل، وتغني للبنات:

"نامي نامي يا عيوني، الليل في قلبي سجين..."

مرة، أعطتها فتاة أجنبية قطعة شوكولاتة، فلفتها سُكينة بقطعة قماش، ودفنتها قرب حجر الخيمة.

قالت: "يوم ترجع البيوت، نفتحها معاً."

ولم ترجع البيوت.

حين وصل مرض الحمى إلى المخيم، كانت سُكينة تملأ الماء من بركة آسنة وتغليه لساعات، تضعه في عبوات ملونة، وتوزعه على الجيران.

لم تكن ممرضة ولا خبيرة، لكنها عرفت أن الماء أمانة، مثل الحليب، مثل الصبر، مثل الوطن.

وفي ذلك اليوم الشتوي الطويل، حين سقطت الخيمة، وانهارت الطوابير، وضاع الرغبة، خرجت سُكينة بثوبها المطرز، ووقفت على التلة القريبة.

رفعت صوتها، وغنت:

"نرجع ولو متنا، نرجع..."

وحين سقطت رصاصة طائشة على صدرها، لم تصرخ.

ابتسمت فقط، كأنها تسلمت دعوة من السماء: "تعالى".

ومضت.

قالوا إنها ماتت.

لكن في صباح اليوم التالي، وُجدت عبوة الماء مملوءة على باب كل خيمة.

### القصة الثانية: "أمينة في الخيمة"

كانت أمينة تبتسم رغم الخوف الذي يلتهم قلبها. عيونها كانت تتلألأ في الظلام، على الرغم من أنها فقدت كل شيء.

حرب ثانية دمرت بيتها، قريتها، حياتها. لم يعد هناك سوى الخيام، وهي وحدها مع أطفالها في خيمة ضيقة، والريح تعصف بأحلامهم الصغيرة.

في الصباح، كان صوت الأمهات في المخيم يرتفع كالأصدااء، فكل واحدة منهن تبحث عن القليل من الأمل. أمينة كانت لا تُظهر ضعفاً، رغم أن قلبها كان يذوب ألماً كلما نظرت إلى عيون أطفالها، الذين صاروا يتساءلون عن سبب الخوف الذي يسكن في الظلام.

صوت المدافع لم يفارق أذنيها، كان يشبه صوت الرعد الذي يضرب الأرض، ولكن في قلبها كان صوت آخر يعبر عن الأمل في الاستمرار.

كانت تخرج يومياً إلى الطابور، تحمل معهم قليلاً من الأمل، كأن الطابور هو نافذتها الوحيدة التي تطل على الحياة، على الغد الذي قد يحمل خبراً أو مجرد قسط من الأمان.

في كل مرة كانت تأخذ الطعام، تضعه بحذر في أكياس صغيرة، وتوزعه على أطفالها.

"لن يأخذ أحد منا أكثر من حاجته"، كانت تقول. "علينا أن نتحمل، أن نساعد بعضنا البعض".

كان الأطفال يضحكون، ولكن تلك الضحكات كانت تخفي وراءها آلاماً لم يفهموها بعد.

عندما اشتد الجوع، حاولت أمينة أن تجد شيئاً آخر لملء البطون الجائعة، فذهبت إلى الخيمة المجاورة لتستعير قليلاً من الزيت، لكن حين وصلت، رأت أن الجارة قد ماتت أثناء الليل، مع أطفالها الأربعة.

عاد الموت ليأخذها، لكن أمينة كانت تعلم أن الموت لن يعيد لهم ما فقده.

في يوم ما، وبينما كانت تحمل كيسًا من الخبز في يدها وتطوف بين الخيام، شعر أطفالها بالجوع بشكل لا يحتمل. كانوا يصرخون، ولم تجد أمينة سوى السماء، تبتهل أن يمنحها الله قوة أخرى لتميرير هذا اليوم. ومع أن ليل الخيمة كان طويلًا، فإن أمينة كانت دائمًا تنام في الجهة التي تقابل وجه أطفالها. كانت تعلم أن بقاءهم على قيد الحياة هو ما يمكن أن يجعلها تدرك طعم الفجر.

ومع مرور الوقت، بدأ المخيم يتغير. الطوابير صارت أطول، والخيام أصبحت أكثر ازدحامًا. ومع ذلك، كانت أمينة لا تترك أطفالها أبدًا. كانت تعطيهم الدروس في الصبر، وتعلمهم كيف يواجهون الموت بابتسامة. "حتى عندما نموت، لا يجب أن ننسى كيف نضحك"، كانت تقول لهم. "الموت ليس النهاية. البداية هي أن تبقى الروح حية."

ثم جاء ذلك اليوم، الذي كانت تمشي فيه بين الخيام وحيدة، فجأة شعرت بشيء غريب. كان الموت قد جاء ليأخذها هي أيضًا، لكنه تأخر، وانتظر. كانت أمينة في الخيمة، تصلي لله بصوت خافت، تتمنى أن يطول الوقت قليلًا ليكمل أطفالها نموهم، ليشاهدوا يومًا أفضل. ومع آخر نفس لها، ابتسمت، وكأنها ترى الضوء في الأفق، وتعلم أن حكايتها ستعيش في أطفالها إلى الأبد.

---

القصة الثالثة. "سما وردية"

كانت سلمى تعدُّ السنوات بعينيها، لا بأصابعها. لم تكن تعرف عمرها تمامًا، لكن الحرب الأخيرة جعلتها تكبر عقْدًا كاملًا في ليلة واحدة. حين تهدم بيتهم، لم تصرخ. فقط نظرت إلى السماء فوجدتها وردية، كأن الغروب قرر أن يلبس ثوب العزاء بلون جميل ليواسيها.

سلمى، ذات الخمسة عشر عامًا، حملت أمها الجريحة على ظهرها. لم يكن هناك أحد ليساعدها، الأب كان قد خرج ليشتري الخبز ولم يعد، والجيران دفنوا تحت الركام، والطرق امتلأت بالدخان والبكاء.

وصلت إلى المخيم بعد يومين من السير على الأقدام، وهي تجرّ أمها على عربة خشبية سرقتها من محل مهدم. في المخيم، لم تسأل عن شيء، فقط مدت يدها للخيمة الأولى، ودخلت. كانت الخيمة مبللة، تفوح منها رائحة الخوف والعرق والنجاة. مدت أمها على بطانية خفيفة، وجلست قربها تنتظر أن تستيقظ.

أمها لم تستيقظ.

في اليوم الثالث، سحبت سلمى البطانية ولقت بها الجسد البارد، ثم خرجت تبحث عن أحد يساعدها على دفنه. الطابور على المقبرة كان أطول من طابور الخبز. وقفت فيه بهدوء، تحمل جسد أمها كمن يحمل وعدًا ثقيلًا. لم تبك. فقط كانت تحرق فيالقصة الأولى: "سكينة الطابور"

لم تكن سكينة تعرف عدد الأرواح التي تحتاجها أسرتها، كانت تحفظ عدد أنفاسهم.

تحسب الجوع مثلما تحسب نبض البنات في الليل، تضع الخبز على نار الهَمّ وتهمس: "اصبروا".

كل صباح، كانت تحمل بيدها عبوة ماء فارغة وباليدي الأخرى رغيفًا يابسًا، وتقف في الطابور الطويل.

كان الطابور يشبه جنازة، لكن من دون ميت. أو لعل الميت كان في قلوبهم جميعًا.

سكينة لم تكن من النساء اللاتي يصرخن في وجوه الرجال، لكنها كانت ترفع حاجبيها فقط، فيرتبك الجندي الذي يوزع الطحين، ويرجع خطوة للوراء.

ربما لأنه رأى في عينيها سيلاً من الغضب المكبوت، أو صورة أمه وهي تغزل الصوف قرب كانون مشتعل في خيمة قديمة على حدود الجليل.

في اليوم الذي مات فيه زوجها تحت الركام، لم تبك. جمعت العظام في كيس بلاستيكي، ووضعتها تحت السرير.

قالت للبنات: "سيعود في المنام، لا تزعجه بالبكاء".

وكان يعود فعلاً.

كانت تراه يحمل معها الجالون الفارغ، ويغرس في صدرها صبرًا جديدًا.

في الخيمة، لم يكن هناك باب، ولا نافذة، فقط قماش مرقّع بالبرد والذكريات.

لكن سُكينة كانت تصحو كل فجر، تصلي على تراب مبنلّ، وتغني للنبات:

"نامي نامي يا عيوني، الليل في قلبي سجين..."

مرة، أعطتها فتاة أجنبية قطعة شوكولاتة، فلَقَّتْها سُكينة بقطعة قماش، ودفنتها قرب حجر الخيمة.

قالت: "يوم ترجع البيوت، نفتحها معًا."

ولم ترجع البيوت.

حين وصل مرض الحمى إلى المخيم، كانت سُكينة تملأ الماء من بركة أسنة وتغليه لساعات، تضعه في عبوات ملوّنة، وتوزّعه على الجيران.

لم تكن ممرضة ولا خبيرة، لكنها عرفت أن الماء أمانة، مثل الحليب، مثل الصبر، مثل الوطن.

وفي ذلك اليوم الشتويّ الطويل، حين سقطت الخيمة، وانهارت الطوابير، وضاع الرغيف، خرجت سُكينة بثوبها المطرز، ووقفت على التلّة القريبة.

رفعت صوتها، وغنّت:

"ترجع ولو متنا، نرجع..."

وحين سقطت رصاصة طائشة على صدرها، لم تصرخ.

ابتسمت فقط، كأنها تسلّمت دعوة من السماء: "تعالى".

ومضت.

قالوا إنها ماتت.

لكن في صباح اليوم التالي، وُجدت عبوة الماء مملوءة على باب كل خيمة.

القصة الثانية: "أمانة في الخيمة"

كانت أمانة تبتسم رغم الخوف الذي يلتهم قلبها. عيونها كانت تتلألأ في الظلام، على الرغم من أنها فقدت كل شيء.

حرب ثانية دمرت بيتها، قريتها، حياتها. لم يعد هناك سوى الخيام، وهي وحدها مع أطفالها في خيمة ضيقة، والريح تعصف بأحلامهم الصغيرة.

في الصباح، كان صوت الأمهات في المخيم يرتفع كالأصداء، فكل واحدة منهن تبحث عن القليل من الأمل. أمينة كانت لا تُظهر ضعفًا، رغم أن قلبها كان يذوب ألمًا كلما نظرت إلى عيون أطفالها، الذين صاروا يتساءلون عن سبب الخوف الذي يسكن في الظلام.

صوت المدافع لم يفارق أذنيها، كان يشبه صوت الرعد الذي يضرب الأرض، ولكن في قلبها كان صوت آخر يعبر عن الأمل في الاستمرار.

كانت تخرج يوميًا إلى الطابور، تحمل معهم قليلاً من الأمل، كأن الطابور هو نافذتها الوحيدة التي تطل على الحياة، على الغد الذي قد يحمل خبرًا أو مجرد قسط من الأمان.

في كل مرة كانت تأخذ الطعام، تضعه بحذر في أكياس صغيرة، وتوزعه على أطفالها. "لن يأخذ أحد منا أكثر من حاجته"، كانت تقول. "علينا أن نتحمل، أن نساعد بعضنا البعض". كان الأطفال يضحكون، ولكن تلك الضحكات كانت تخفي وراءها آلامًا لم يفهموها بعد.

عندما اشتد الجوع، حاولت أمينة أن تجد شيئًا آخر لملء البطون الجائعة، فذهبت إلى الخيمة المجاورة لتستعير قليلاً من الزيت، لكن حين وصلت، رأت أن الجارة قد ماتت أثناء الليل، مع أطفالها الأربعة. عاد الموت ليأخذها، لكن أمينة كانت تعلم أن الموت لن يعيد لهم ما فقدوه.

في يوم ما، وبينما كانت تحمل كيسًا من الخبز في يدها وتطوف بين الخيام، شعر أطفالها بالجوع بشكل لا يحتمل. كانوا يصرخون، ولم تجد أمينة سوى السماء، تبتهل أن يمنحها الله قوة أخرى لتمرير هذا اليوم. ومع أن ليل الخيمة كان طويلًا، فإن أمينة كانت دائمًا تنام في الجهة التي تقابل وجه أطفالها. كانت تعلم أن بقاءهم على قيد الحياة هو ما يمكن أن يجعلها تدرك طعم الفجر.

ومع مرور الوقت، بدأ المخيم يتغير. الطوابير صارت أطول، والخيام أصبحت أكثر ازدحامًا. ومع ذلك، كانت أمينة لا تترك أطفالها أبدًا. كانت تعطيهم الدروس في الصبر، وتعلمهم كيف يواجهون الموت بابتسامة. "حتى عندما نموت، لا يجب أن ننسى كيف نضحك"، كانت تقول لهم. "الموت ليس النهاية. البداية هي أن تبقى الروح حية."

ثم جاء ذلك اليوم، الذي كانت تمشي فيه بين الخيام وحيدة، فجأة شعرت بشيء غريب.  
كان الموت قد جاء ليأخذها هي أيضًا، لكنه تأخر، وانتظر. كانت أمينة في الخيمة، تصلي لله بصوت خافت، تتمنى أن يطول  
الوقت قليلاً ليكمل أطفالها نموهم، ليشاهدوا يوماً أفضل.  
ومع آخر نفس لها، ابتسمت، وكأنها ترى الضوء في الأفق، وتعلم أن حكايتها ستعيش في أطفالهما إلى الأبد.

---

### القصة الثالثة. "سما وردية"

كانت سلمى تعدّ السنوات بعينيها، لا بأصابعها. لم تكن تعرف عمرها تمامًا، لكن الحرب الأخيرة جعلتها تكبر عقداً كاملاً في  
ليلة واحدة. حين تهدم بيتهم، لم تصرخ. فقط نظرت إلى السماء فوجدتها وردية، كأن الغروب قرر أن يلبس ثوب العزاء بلون  
جميل ليواسيها.

سلمى، ذات الخمسة عشر عامًا، حملت أمها الجريحة على ظهرها. لم يكن هناك أحد ليساعدها، الأب كان قد خرج ليشتري  
الخبز ولم يعد، والجيران دفنوا تحت الركام، والطرق امتلأت بالدخان والبكاء.

وصلت إلى المخيم بعد يومين من السير على الأقدام، وهي تجرّ أمها على عربة خشبية سرقتها من محل مهدم. في المخيم، لم  
تسأل عن شيء، فقط مدت يدها للخيمة الأولى، ودخلت. كانت الخيمة مبللة، نفوح منها رائحة الخوف والعرق والنجاة. مدت  
أمها على بطانية خفيفة، وجلست قربها تنتظر أن تستيقظ.

أمها لم تستيقظ.

في اليوم الثالث، سحبت سلمى البطانية ولقّت بها الجسد البارد، ثم خرجت تبحث عن أحد يساعدها على دفنه. الطابور على  
المقبرة كان أطول من طابور الخبز. وقفت فيه بهدوء، تحمل جسد أمها كمن يحمل وعدًا ثقيلًا. لم تبك. فقط كانت تحرق في

السيدة صفية التعبان... والحمار الذي قادها إلى الحياة

في الثالثة والثلاثين من عمرها، كانت \*\*صفية التعبان\*\* تعيش حياة بسيطة في بيت صغير مع زوجها وأطفالها الثلاثة، إلى أن سقطت قنبلة فجّرت كل شيء: البيت، الأمان، والزوج الذي صعد روحه إلى السماء. ولم يبقَ لها سوى أطفالها... وحمار بنيّ كبير كان زوجها يستخدمه في نقل البضائع.

في لحظة، وجدت صفية نفسها أمام خيار واحد: الرحيل.

لم تكن تملك سيارة، ولا حيلة، ولا حتى خريطة، لكن كان أمامها الحمار... ينظر إليها كأنه يعرف أنه صار مسؤولاً عن هذه العائلة الصغيرة.

"يمًا، بدنا نهرب؟" سألتها طفلها الأوسط.

فأجابته بصوت مبجوح: "بدنا نعيش، يا قلبي... نمشي ورا الحمار، يمكن هو بيعرف الطريق أحسن من الناس".

كانت تلك المرة الأولى التي تمسك فيها بلجام كائن حي، قلبها يخفق، والرياح تعصف بثوبها، لكنها مشّت. كان الحمار يسلك الطرق الجانبية، يتعد عن النار والدخان، كأنه يعرف بأن على ظهره أمانة لا تتحمّل الخطأ.

صفية كانت تمشي إلى جواره، لا تكلمه، لكنه يفهمها.

"كأنه فيه روح أبوهم"، همست ذات مرة، "كأنه حاملنا برموشه، ومبسوط إنّه معنا".

عندما وصلوا إلى مخيم النزوح، نزلت صفية عن الطريق، واحتضنت أطفالها، وربّنت على رقبة الحمار، وقالت:

"يا طيّب، ما قصّرت... جبتنا سالمين، يا رفيق القلب".

لكن القصة لم تنته عند النزوح.

بعد أيام، بدأت صفية تستخدم الحمار في العمل: تنقل الحطب، الماء، المؤن، والملابس.  
كانت تعمل من الفجر حتى الغروب، فقط لتحصل على لقمة شريفة لأطفالها.

وفي إحدى المرات، قالت لها جارتها في الخيمة:  
"أنتِ مش بس أم، إنتي خارقة... بتقودي حمار، وبتقودي الحياة".

ضحكت صفية وقالت:

"ما عندي درع، بس عندي ولاد، والحمار... وما بدي أكثر".

في كل صباح، كانت صفية تمشط شعرها بسرعة، تربط الحمار، وتشير لأطفالها:  
"يلا... الدنيا بتستتنا".

وفي كل مساء، كانت تعود منهكة لكنها مرفوعة الرأس.  
صفية التعبان، ابنة 33 عامًا، امرأة لم تهرب من الحرب فقط، بل صادقتها، وسخرت حمارًا بسيطًا ليكون وسيلة نجاتها.

لم تكن مشهورة، لكن في عيون أولادها، كانت \*\*أقوى من ألف جدار... وأحنّ من ألف حضن\*\*.

السيدة منى سعيد فضل... زوجة الإسكافي السعيد

أنا منى، زوجة الإسكافي السعيد، أبلغ من العمر 45 عامًا.  
حين وصلنا إلى مخيمات النزوح، لم نكن نحمل شيئاً سوى أجسادنا المتعبة وأرواحنا المرتجفة... وأدوات تصليح الأحذية التي  
تمسكّ بها زوجي كأنها كنز النجاة.

في المخيم، لم يكن الناس يركضون خلف الأحلام، بل خلف طوابير الخبز والماء والمساعدات.

الناس هنا لا يركضون فقط، بل يركضون حفاة.

في أيام قليلة، صار الحذاء عملة ثمينة.

الجميع يحاول أن يحافظ على حذائه، لأنهم لم يعودوا يملكون غيره، ولأن الأرض قاسية، والأمل بعيد.

وكانوا يأتون إلى زوجي، الإسكافي، في خيمتنا البسيطة.

يأتون بأحذية مهترئة، ممزقة من الجوانب، مثقوبة من الأسفل، وأحيانًا بلا أربطة.

رجال ونساء، فتيات وأطفال، يحملون أحذيتهم كما يحمل المريض قلبه المرتجف، ويرجون: "لو بس تقدر تخطيه... نقدر نكمل المشي".

في البداية، كنت فقط أراقب زوجي وهو يعمل.

يُمسك الحذاء بحنان، كأنه يُضمد جرحًا، يخطيه بخيط سميك، يُعيد له الحياة.

ثم ذات مساء، قال لي: "تعال، خليني أعلمك... يمكن يومًا تحتاجينها".

وبالفعل، تعلمت المهنة.

أصبحت أساعده. صرت أجلس بجواره، أمدّ له الإبرة، أمسك الخيط، أضغط على الكعب، وأحيك مع الأيام ما بين الجلد والمطاط والذاكرة.

كانت أجمل لحظة هي عندما تُسلم الحذاء لصاحبه... نظيفًا، قويًا، صالحًا للركض من جديد.

كانوا يبتسمون. البعض يشكرنا، البعض يبكي، البعض يقول: "والله رجعت لي رجلي!"

وساعة تضحك فتاة شابة، وتقول: "كنت مفكرة أستحي ألبسه... بس هيك رجعت ثقتي".

حينها كنت أدرك أن عملنا ليس فقط تصليح الأحذية، بل إنقاذ جزء من كرامة الإنسان.

كل الذي أريد أن أقول، هو أنني لم أفهم معنى السعادة الحقيقي، إلا عندما رأيت عيون الناس وهي تلمع بعد أن ننقذ لهم حذاءهم.

كنت أظن السعادة في البيوت الكبيرة، في الراحة، في المال.

لكن في المخيم، فهمت أنها تكمن في \*\*زوج حذاء مُخاط بخيط أمل، وسيدة تحمل الإبرة كما لو كانت مفتاحًا للكرامة.\*\*

أنا منى... زوجة الإسكافي السعيد، وصرْتُ إسكافية مثله.

نخيط الأحذية، ونُخيط معها بعض حياة.

السيدة خلود ناجي... امرأة على حافة الانتظار

أنا خلود ناجي، في الأربعين من عمري، وأعيش في خيمة لا تسع غيابي.  
لم أحمل من بيتي سوى أطفالي، وبعض الثياب، وصورة قديمة لزوجي، وصوته وهو يقول: "لا تخافي... سأعود سريعاً".  
لكنه لم يعد.

في الطريق إلى النزوح، لم تكن نحمل سوى الخوف، والبرد، وبعض الخبز اليابس.  
أما هو، فحملته سيارة الجنود من شمال غزة، واختفى.  
منذ تلك اللحظة، وأنا أعيش بين حروف الانتظار، كأنني أعدّ أنفاسي على إيقاع الغياب.

أعدّ النجوم كل ليلة، أسألها: هل مرّ من هنا؟  
أتذكّر ضحكته عندما كان يمزح الأطفال، صوته وهو يوقظني للفجر، يده حين يربت على ظهري ويقول: "كل شيء سيكون  
بخير".

كل شيء ليس بخير.

أحضن أطفالي كأنني أحضنه، أمّرر يدي على رؤوسهم كأنني أواسيه.  
أشكو للبحر، وأتحدث إلى أخشاب الخيمة، أقول لها: "إن سأل عني... أخبريه أنني لم أذهب بعيداً، فقط صرت ظلماً بين القماش  
والدموع".

أسأل كل من يخرج من الاعتقال: "هل رأيته؟ هل ما زال حياً؟ هل قال شيئاً؟"  
أمسك طرف قميصه، طرف صوته، طرف اسمه، ولا أتركه حتى يطمئنني أو يزيدني وجعاً.

أنتظره كمن ينتظر معجزة. لا أعرف متى يعود، ولا كيف، لكنني أنتظره.

أعلق اسمه على حبال الغسيل، وأغسله بالدموع، وأنشره في الشمس.

في المخيم، يعرف الجميع أن خلود تنتظر زوجها.

لا تضحك كثيرًا، لا تأكل كثيرًا، لكنها تقف كل صباح، تمشط شعر طفاتها، وتقول: "سيعود أبوك اليوم".

ربما لا يعود اليوم.

لكنني سأنتظره غدًا، وبعد غد، وكلّ الأيام، حتى لو صار قلبي خيمة أوسع من الألم.

أنا لا أريد شيئًا من هذه الدنيا...

فقط أن أراه من بعيد، أن أعرف أنه بخير، أن أمسح عن وجهه غبار السجن، وأقول له: "انتهى كل شيء... نحن هنا".

أنا خلود ناجي، امرأة عادية جدًا...

لكنني في هذا المخيم، صرت \*\*عنوانًا للانتظار\*\*.

السيدة سوسن الحمامي... نار الطين وحنين الأم

في الخمسين من عمرها، وجدت السيدة \*\*سوسن الحمامي\*\* نفسها في قلب معركة لا تُشبه أي معركة خاضتها من قبل.

حرب جاءت فجأة، ومحت البيوت والأسواق والفرن الذي كانت تشتري منه خبزها كل صباح.

انتشر الجوع في كل مكان، وصار الناس يتشاركون الرغيف كما يتشاركون المأوى والوجع.

وفي وسط هذا القحط، عادت ذاكرتها إلى الطفولة...

إلى تلك اللحظات التي كانت فيها تقف بجانب أمها وهي تصنع فرناً من الطين والحجارة والتبن.

"افركي جيدًا يا سوسن... الطين لا يصدقك إن لم تحبيه بيدك"، هكذا كانت تقول أمها.

ويومًا بعد يوم، تعلّمت منها كيف يولد الخبز من التراب، وكيف تتحول النار إلى حياة.

في مخيم النزوح، وبين الخيام وأصوات الطائرات، قررت أن تصنع فرناً طينيًا كما كانت تفعل أمها.

بدأت أولاً بجمع الحجارة الكبيرة، ورتبتها بشكل دائري لتكون قاعدة الفرن. ثم جمعت الطين من أطراف الوادي وخلطته بالقش اليابس، وأبقت الخليط مغطى ليختمر تحت الشمس يوماً كاملاً، كما كانت أمها تفعل.

في اليوم التالي، بدأت بتشكيل جدار الفرن، طبقة فوق طبقة، بيديها العاريتين، كانت تسحب الخليط وتصفقه مثلما يُصَفَّف الخبز في السُّفر.

صنعت قبةً كبيرةً بفتحة أمامية صغيرة، وفي الأعلى فتحة لخروج الدخان. وبعد أن انتهت، تركته يجف تحت شمس النزوح أياماً طويلة، حتى صار صلباً كأنه بيت.

ضحك بعض الجيران في البداية، ثم اقتربوا... ثم انتظروا.

وفي أول يوم أشعلت فيه الفرن، تفجّر الدخان، تبعه رائحة الخبز الساخن التي سألت مثل الحنين في قلوب الناس.

جاء الأطفال أولاً، ثم الأمهات، ثم الشيوخ.

كانت تخبز لكل من أتى، مقابل القليل، أو أحياناً مجاناً.

تقول سوسن: "كل رغيّف أخرجته من الفرن، أحس أن أمي تبتسم لي من فوق، وتقول: أحسنت، بنتي."

في المساء، تجلس إلى جانب الفرن، تراقب الجمرات، وتهمس:

"يا أمي... علمتيني النار، وها أنا أطعم بها الجوعى، وأحيي بها خبز الكرامة."

بمرور الوقت، لم تعد الخيمة خيمة فقط، بل صارت فرنًا، ومخبزًا، ومكانًا للقاء.

النساء جنن يتعلمن منها، الفتيات رحن يقلدنّها، وصار في كل ركن من المخيم رائحة خبز ومكان دافئ.

وهكذا، صارت سوسن الحمامي خبازة الحيّ، ووريثة نار الأمهات.

لم تنسَ يوماً أن أمها هي من علمتها هذه الحرفة.

وفي كل صباح، كانت تقول لمن حولها:

"الطين لا يصنع خبزًا فقط... يصنع حياة، ويصنع أمًا تظل تُطعمني حتى بعد موتها."

السيدة لينا جواد... المهندسة التي بنّت الأمل من خيمة

كان اسمها يُكتب على لوحات مداخل القصور، وكانت تصاميمها تملأ المجلات المعمارية.  
\*\*لينا جواد\*\*، مهندسة معمارية في الثالثة والثلاثين من عمرها، عُرفت بخيالها الخصب، وخطوطها التي تُحوّل الطين إلى جمال.

لكن الحرب لا تقرأ السير الذاتية، ولا تعترف بالأحلام.  
جاءت القذائف، فهدمت مكاتبها، وسرقت مشاريعها، ودفعتها إلى النزوح مع أهلها نحو المجهول... نحو الخيمة.

الخيمة لا جدران فيها ولا نوافذ، ولا سقف يُعزل الخوف.  
لكن لينا لم تقبل أن تكون قطعة قماش تُطوى في الريح.  
نظرت إلى خيمتها وقالت: "سأجعل منها بيتًا يُشبهني... بسيط، لكنه ذكي."

بدأت بترتيب الأرضية، جمعت الحصى وسوّتها، فرشتها بطبقة من البلاستيك وأخرى من الكرتون المضغوط، لمنع الرطوبة.  
ثم علّقت داخل الخيمة بطانيات سميكة، بشكل طبقي، لحجب الحرارة صيفاً وحفظ الدفء شتاءً.  
أضافت طبقة من النايلون بين الجدار الخارجي والداخلي، فصار الهواء يتدفق دون أن يُحرق.

كانت تستخدم قطع الكرتون كعوازل صوتية، ولصقت بعضها بالقماش الداخلي، مما خفف من صدى القنابل التي تهز المخيم ليلاً.

كل زاوية من الخيمة خضعت لعقلها الهندسي.

علقت المصابيح على علو مدروس، وزرعت في الزوايا نباتات صغيرة في علب معدنية، لتضيف رائحة طبيعية وشعورًا بالحياة.

حتى فتحة الخيمة أعادت توجيهها لتواجه اتجاه الرياح، كي تلتقط نسمة صباحية وتُغلق في وجه الغبار.

تقول عنها جارتها: "خيمتها لا تُشبه الخيام... فيها روح بيت حقيقي".

وفي المساء، كانت لينا تجلس في ركنها وتقول:

"ما زلت مهندسة... فقط أدواتي تغيرت".

سألها يومًا: "كيف صممت خيمة باردة صيفًا، دافئة شتاءً، تعزل صوت القنابل؟"

أجابت: "أنا لم أصمم خيمة... بل صممت راحة لأطفالي، ومساحة لأحلم".

في زمن الحرب، لم تُبهر لينا أحدًا بتصميم قصر، بل أبهرت الجميع بخيمة.

خيمة صامته من الخارج، لكنها من الداخل كانت تروي حكاية مهندسة رفضت أن تُهزَم، فبنّت من الفوضى تحفةً من صبرها.

لينا جواد... \*\*المرأة التي أعادت تعريف معنى البيت.\*\*

السيدة فائزة منديل... ماكينة الخياطة التي نسجت الأمل

في الخامسة والخمسين من عمرها، حملت السيدة \*\*فائزة منديل\*\* حقيبة صغيرة، لكنها كانت أثقل من كل ما تركته خلفها: ماكينة الخياطة القديمة التي ورثتها عن والدتها، وصوتها المعدني الذي كان يقرع على إيقاع الحياة.

حين نُزحنا من بيتنا، لم يكن بيديها سوى تلك الماكينة، التي كانت في الماضي رمزًا للعائلة، وذاكرة للتراث، وأداة للحياة. تعلمت الخياطة والتطريز على يدي أمها، التي غرست فيها حب الأثواب المطرزة، وجعلتها تكتشف أن الخيط والإبرة يمكن أن يكونا سلاحًا في وجه الحزن.

في مخيم النزوح، بين الخيام المتواضعة، أخرجت فائزة ماكينة الخياطة من صندوقها الخشبي، ونصبتها على طاولة صغيرة، تضيء عليها شمعة في المساء.

كانت الماكينة قديمة، ثقيلة، من الحديد المطروق، بلون أسود لامع مخضب بزخارف ذهبية متآكلة، تعكس سنوات طويلة من العمل والصبر.

عندما تبدأ فائزة بتشغيلها، ينبعث صوت منقطع، منتظم، يشبه دقات قلب يرفض الانكسار،

"طَق... طَق... طَق..."

يملأ الخيمة بصدى القوة والإصرار، ليقلب الخواء إلى حياة.

كانت الخيوط بالألوان مختلفة، بعضها قديم ومفصول ألوانه، لكنها ما تزال تحمل بين أليافها أملاً جديداً.

الأحمر ينسج شغف النساء، الأزرق يهمس بسلام بعيد، والأصفر يضيء كالشمس التي لا تغيب في قلوبهن.

كانت فائزة تختار الخيوط بعناية، تدمج الألوان لتخبر قصة كل ثوب، فتصبح كل غرزة رسالة تحمل مشاعر النساء بين الأقمشة.

بدأت تخطي الأثواب، ترفع التطريز بخيوط ملونة، وتنسج حكايات النساء اللواتي فقدن بيوتهن، لكنهن لم يفقدن أنوثتهن ولا كرامتهن.

كانت تخطي ثوباً لكل امرأة تمر أمام خيمتها، ثوباً يحكي صمودها، ثوباً يضم ذاكرتها، ثوباً يُعبّر عن روح لا تُقهر.

تقول فائزة: "كل غرزة أضعها هنا، هي دعاء، هي أمل، هي رسالة لأطفالي وللأجيال القادمة أن الحياة لا تموت مع النزوح."

وكانت النساء تأتيها، يحكين لها عن قصصهن، عن الحكايات التي تحملها أقمشة الأثواب، وعن الألوان التي تختارها لتروي الفرح أو الألم.

وصارت خيمتها ملتقى للنساء، حيث تتبادل الفرح والأمل مع كل غرزة.

حتى وسط الدمار، استطاعت فائزة أن تحافظ على تقاليدها، وأن تزرع الجمال حيث يكسوه الحزن.

كانت تقول دائماً: "الماكينة ليست مجرد آلة، إنها القلب النابض للمرأة في هذه الأرض."

وهكذا، بين صوت ماكينة الخياطة وصدى الحكايات المطرزة، بقيت السيدة فائزة منديل رمزاً للثبات والجمال في زمن النزوح والشتات.



## جماليات الحرب والنزوح

أجلسن الحرب في الوسط، وأحطن بها كألها عريصاً جادت مدحبةً من طريق طويل. كانت عشر نساء يعملن بصحن الأولى خاطت لها لوباً من بقايا الحربطيا الغيام. والثالية رسمت على وجهها نافذةً نطل على البحر، والثالثة كتبت لها اسماً جديداً. والرابعة رتبت أنبيت حولها، والغاسية مهبت الخيز حتى احللاً الصائت برالحته. والسادسة ضمدت جراحول والمايعة كتت. فاقنوب الأقلال، والنامة حركت الدمى، فصمك الصفار. والنامعة صفت مصرها وزينته بالباصميج. أما الماترف، فكانت نعفي ستيماً حنف فورها. وبعد محارلات كثيرة، لم نهد الحرب مفيضةً كما كانت. مار الأقلال يلعبون حولها. والجدات يحكين لها الحكايات. والمصافير تُبظ مل ككتيها دون خوفد حتى إنه تهاها لحيها. ولقدّم لخطبتها. وفي ليلة الرقاق، وقبل أن يكتمل الفرح. اقدرت لفرأة العائرة بهنوء. وفرست السكين في صدرها. في المحفة نفسها. هادت الحرب كما عرفها الجميع... وكانت الجميلة التي مانت هي السلام.

## The Beauties of War and Displacement

They seated War in the middle, surrounding her as though she were a weary bride returning from a long journey. Ten women gathered around her. The first stitched her a dress from the remnants of torn tents. The second painted a window upon her face, opening onto the sea. The third gave her a new name. The fourth boiled a home around her. The fifth baked bread until its fragrance filled the air. The sixth dressed her wounds. The seventh sang, and the children drew near. The eighth brought puppets to life, and laughter blossomed. The ninth combed her hair and adorned it with jewelry. Only the tenth woman stood in silence, concealing a knife behind her back. After many alterations, War was no longer terrifying. Children played beside her. Guardians told her stories. Birds landed gently on her shoulders without fear. A young man fell in love with her and asked for her hand in marriage. On the eve of the wedding, just before joy could become eternal, the tenth woman stepped forward, drew the hidden knife, and plunged it into her heart: in that instant, War returned to the world exactly as everyone had always known her. For the beautiful woman who died was Peace.